زهرة السلوان

فاروق خورشيد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

زهرة السلوان

مجموعة قصصية

فاروق خورشيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٩

الإخراج الفنى والتنفيذ:

صبرى عبدالواحد

إهداء

إلى:

سلوان محمود حسن إسماعيل

واحة البعث الجديد

ومعنى استمرار الأمل والحياة

فاروق خورشيد

في عصرنا هذا
ليس من السهل أن نكتب الحقيقة، كل الحقيقة..
ولكننا نستطيع أن نرمز إليها بما هو واقع مر،
وحقيقة في ذاته، فإذا بها قد تتضح عند بعض
القلوب الواعية فيصل إليها جزء من الحقيقة أما
الحقيقة فتظل مدفونة في أعماق العمل الأدبي،
لن يكشفها إلا من يكرس نفسه لفهم العمل،
بحثا عن الحقيقة ولكن ماهي الحقيقة؟

عم عبده (الأخضرانى)

لأول مرة يحس أن يده لا تقوى على حمل الإناء الملىء بالماء الذى يمر به على شجيرات السلم أمال الإناء مرة ومرة وفى كل مرة يتدفق الماء إلى الآنية التى تحمل الشجيرات ويتحول الطين من اللون الأصفر المتماسك إلى لون بنى ثم أسود ويتفكك الطين ويمر عليه بسكينته يحركه ويباعد بين أجزائه التى كانت خالية قبل أن يمسها الماء.

هذا سلم الأستاذ «محمد» يحب الأشجار، أخوته يحبون النباتات الأكثر رقة والأكثر خضرة والأكثر جمالا ولكنه صلب كأشجاره.. ولابد من نزع الفروع التى اصفرت ويا خوفى من أن تصفر كل الفروع إلى حد الموت.. فكل ما أفعله اجتهاد فى اجتهاد.. لا أنا كنت بستانيا، ولاتعلمت كيف أكون هذا البستانى الذى يراعى أشجارا ونباتات وزهورا، ليست ككل الأشجار التى رأيتها فى حياتى وليست ككل النباتات والزهور فهى أشجار ونباتات وزهور ظل.

تنهد، وهو يترك الإناء الثقيل على الأرض أمام العتبة ويخرج من جيبه خرقة مبللة يمر بها على أوراق الشجرة، ورقة، ورقة، يزيل عنها الأتربة فى حنو وعطف ـ كأنها أولاد صغار تصرخ وتئن وتتشنج وتضرب بأيديها وأرجلها وهى لا تريد، لا الطعام ولا الشراب.. وإنما هى تريد العطف والحنان فإن هدهدات جسدها، تضمه إلى جسدك العجوز، أن ربت على شعرها المشعث المترب المتمرد من طول عبث هواء النهار به، استكانت فى صدرك، وهدأت ثورتها، ونامت، وفى الغد تزد هر وتريد من جديد.

زينب أرته هذا الصباح حذاءها، غدا ممزقاً لا رجاء فيه، من قبل دفع خمسين قرشا رتق جزءاً فيه، وبعد حين دفع سبعين قرشا للصق جزء فيه، ثم هو يذكر يومها تمام، دفع مائه وخمسين قرشا كامة لأن جزءا فيه لابد من خياطته بالماكينة التى عند الخواجة فى أول الشارع الجديد ـ ياكم مر على هذا الخواجة، وهو يعمل فى دأب كامل، وبين السندان، وبين الماكينة، وبين المخيط يحمل بين كفيه، إبرتين طويليتين، تبرزان من خيط قد مر عليه بالشمع من قبل أكثر من مرة، حتى يصلب ويروح يخيط جلود الأحذية التى تمزقت ليحييها من جديد، وكان يرقبه فى اهتمام ولا يظن أبدا أنه سيحتاج إلى مهاراته هذه المتعددة إلى أن بدأ حذاء ابنته فى التمرد على قدميها الدائمتى الحركة،وعلى استعمالها الصعب المتكرر.. من البيت مشيا وحتى المعهد، ومرة فى الصباح، ثم مرة فى المساء، ومع كل مرة عودة أكيدة فى الظهر وفى الغروب،وطبيعى أن يتمزق الحذاء ويهترئ،

ويحتاج إلى العتق والرتق واللصق والخياطة أيضا.. تنهد عم عبده، وهو يرفع يده التى مالت على إناء الورد وهمس لنفسه..

كان الحذاء هدية من الست سالى فوق، ولو كنت طلبت منها حذاءا آخر، ما كانت تبخل على ولا على زينب أبدا، ولكنى خجلت، فدفعت وطال الدفع والحذاء يهترئ ولابد من حذاء جديد.

وضع إناء الماء الذى اصبح حمله خفيفا إلى ناحية، وأمسك سكينة من جديد، ومضى يحرك الطمى فى البراميل الخشبية، الآنية الحجرية التى تحتوى الزهور على السلم. كم من مرة فعل هذا ـ هو لا يدرى ـ ولكنها مرات عديدة، حتى غدا ما يفعله شيئا متكررا وثابتا وأكيدا ـ وتحيا النباتات التى يفعل فيها هذا كل أسبوع – ولا يعرف كيف، ولا لماذا؟ هو فقط جاء خائفا إلى كل هذا الشجر والورد ولم يستطع إلا أن يقدم حبه الغريزى وحنانه الذى يحسه تجاه كل شيء حى ـ الله، الله، لم تخذله شجرة ولم تمت فى يده زرعة، ولم تذبل فى يده وردة.

منذ دخل هذا البيت وكل أوانى الزرع فيه، على السلم، وفى الشقق، والغرف، والنوافذ والبلكونات، استجابت كلها له، وسترته، لم تمت منها واحدة، ولم تخذله منها واحدة ـ وتعلم منها وفيها، كيف يعتنى بها ـ كلها استجابة له ـ وكلها عاشت تخضر لمائه وتزدهر لتقليبه لطينها، وكلها تحب، مايقدم لها من طين جديد يمزجه بطينها القديم ـ هى أحبته فسترته، واترك كل كلام، وهو سترريك، وأنه أراد لك أن تربى الأولاد وأن تستر امهم الصابرة، المريضة، تغالب كل الألم والمرض

لتعد لهم هو والولدين والبنت طعام العشاء كل ليلة، وهو كل الطعام الذى يعرفونه على مدار اليوم.. تعود الأولاد يخرجون قبل أن تفكر الزوجة فى القيام من نومها.. كلهم يرحمها، ويعذرها ويتركها لآلامها.. والكل ينصرف إلى حاله، يذهب الأولاد إلى معاهدهم، وتذهب البنت إلى معهدها، وهو يخرج على باب الله، بيت كريم أواه، فانساه، ورحمه، فأعطاه. لا.. هو تأكيدا سيقول للسيدة سالى إن الحذاء الذى سبق وأعطته لزينب لم يعد يصلح ويسكت باللعينين المتألقتين الراحمتين.

- ياعم عبده احنا أهل، اطلب دون حرج..

وتقفز الدموع إلى عيونى، فلست أهلا، وإن كنت دائما يرحب بى عندها سهلا عندها وعند الأم الرقيقة فى الدور الأخير- هى تعطى الشاى وشيئا أكله، أما الأم فهى تقول فى دفء وحنان:

- ياعم عبده لا تخرج إلاأن تذوق (ملوخية) أمى تركتها لك ومعها أرز، وفخذة من الدجاجة- الله يا عم عبده هذا نصيبك، الأولاد كلهم كانوا عندى واكلوا ثم تركوا لك هذا، كأنه نصيبك .. وبصمت وتطرق برأسها الجميل الرقيق وتقول:

- ياعم عبده لو كان عندنا أكثر لأعطيتك للبنت والولدين وأمهم- ولكن- هذا كل ما تبقى عندنا. وتبتسم فى وجهه ثم تدير ظهرها وتتركه أمام الطعام ليأكل كفايته.

وكان يعرف فى أعماقه أنها حفظت له نصيبه فى طعام أولادها وأنها لا تريد إلا أن يقبله دون مساس بكرامته.

يا ناسى .. أنتم ناسى وكرامتى.. وأكثر الله منكم ومن خيركم..

ويمد يده إلى عينيه، يجفف دموعا يحس أنها تفرض نفسها على وجنتيه..

ما الذى جرى له اليوم ـ رق وشف ـ وأحب كل هؤلاء الناس الذين رعوه وأحبوه وصدقوا أنه يفهم فى الزرع ورعاية الزرع.

كلهم كانوا يعرفون أنه عم عبده النقاش، لغته الفرشاة والألوان ولكنه لم يعد فى مثل مهارته لم يعد فى مثل قدرته لم يعد فى مثل تمييزه بين الألوان..

الزمن تقدم والسنون لعبت دورها، ولولا قدرته على صلب طوله، لانحنى كتفاه، ولكنه لن ينحنى أبدا لشىء ولالأحد.

الولدان فى دراساتهما المتوسطة، واحد فى التجارة والثانى فى العلاج الطبيعى، والبنت تخوض معركة أثر معركة لتكون واحدة من البنات، واحدة من وجود، واحدة لها كيان، ولها معنى وأنها أنثى أسعى من أجلها، ومن أجل أن يصونها الله، وأن يحميها، وأن تقوى على أن تكون صاحبة وجود مستقر وتفهم الست سالى، وتقول..

ـ ياعم عبده، كل مصاريف زينب أنا أدفعها.

ولم أقل لها شيئا، كيف أقول، وهى كل هذا الكرم..

وينبح الكلب،فيفيق عم عبده، ويحمل إناء الماء ذى البوز العريض معه، ويتحامل، ويستمر فى سيره إلى الدور التالى فلابد أن يسقى الزرع فى هذا الدور كما سقاه فى الدور السابق.

ـ ياه، لم يحس أبدا من قبل أن المشوار طويل، وما بين الدور الأرضى، الدور الأول، الدور الثانى لا هو مشوار طويل، طويل.. وطويل جداً..

أسند ظهره إلى الحائط وفى يده يمتد إناء الماء والكلب يسير من قريب وهو يتطلع فى أمل إلى الدور الجديد القريب، القادم لاشك، والقادم عن إصرار فى طريقه رغم إنه يجر إليه رجليه جرا، والقادم عن واجب لابد أن يقوم به ليحلل القرش..

وصاحت الست سالى فجأة من الدور الثانى:

ـ ياعم عبده، ساعة حتى تصل إلى، تأخرت وأنا لابد أن أخرج لشغلى.

صاح عم عبده وهو يخرج نفسه من كل ما مر بها، وما احتواها من أفكار وأحلام

ـ حالا يا ست سالى

قالت:

ـ أنت تعرف أننى لابد أن أذهب إلى عملى

همس فى صمت:

ـ وفقك الله يا ست الكل، ولكنى سأفرغ من هذا الدور حالا، وأصل إليك، كان صوتها مزيجا من الفهم والحنان والثورة والتمرد وهى تقوله:

ـ أنتظرك يا عم عبده فأسرع.

مد عم عبده يده إلى الحائط ليدفع جسده، وتنهد وهو يصلب عوده، وانحنى يمسك آنية الماء ذات العنق الطويل والبوز الرشاش.. وينزل السلم خطوة خطوة، وهو يهمس لنفسه:

- أنا تأخرت عليها حقا، هى صاحبة حق، بل هى دائما صاحبة شخط، وتصرخ حتى تستفزنى فى أحيان كثيرة لأثور، ولكنها أولا صاحبة حق، وثانيا هى كل الحنان والحب هنا - حين حل الشتاء فى العام الماضى قالت لابنى عبدالصمد:

- تعال خذ كل هذه البدل فأنت ستدخل الجامعة - وأعطته كل شيء، كل ما كان لزوجها الذى رحل - لم تبق شيئا ولم تبخل بشيء.. القمصان، والجوارب، والأحذية، مع البدل..

كنت أعرف أنها يائسة وحزينة وأنها ترفض الحياة وترفض كل ما يربطها بالحياة.

ولكنها كانت مخلصة وكانت معطاءة وعاش عبدالصمد إلى الآن فى ظل ما أخذه منها ليلة حزنها العظيم.. وحمل الآنية الخالية من الماء وارتقى درجات السلم وضرب الجرس.. كان الباب مفتوحا ومع هذا ضرب الجرس، وأحنى رأسه فى أدب، وضرب الجرس من جديد ليستأذن فى الدخول، وفى أن يسمح له أن يقتحم هذا العش الجميل.

تزوجت سالى، ياكم أحبها كزينب وربما أكثر.. يا كم خاف عليها ياكم خشى أن تتعذب زينب عذاباتها..

هو يمر كالطيف بالمنزل وينسى أهل المنزل أنه شيء حى، ينسون أمامه كل حذر وكل توجس فهو شيء مفروغ من أمر وجوده.. فيتحدثون أمامه بكل حرية، وكل انطلاق، وبلا موارية.. ويمر كالطيف الساكن، ولكنه يسمع ويفهم، ويتعذب لها وهو يسمع، ويرش لها وهو يفهم..

هى نبتة خضراء يا عبده.. انظر كم نشرت فى بيتها الخضار.. كل ركن فيه وردة.. فيه شجرة، فيه زهرة.. وكان يحس أن هذا كله لم يوضع فى كل أركان الشقة للزينة فقط، إنما هو وضع للحياة ـ تريد لهذه النباتات كلها أن تعيش، أن تجد مكانا آمنا تحيا فيها .. وهى توفر لها الأمان والرعاية والحب ـ كان يتضايق من نظرتها الغاضبة حين ينسى أن يقلب الطين تحت الفرع الأخضر فى الإناء الموضوع تحت اللوحة الخضراء الفخمة فى واجهة الصالة، عند المدخل ـ ولكنه كان يفهم مدى حبها للفرع الرطيب ويلوم نفسه ويهمس:

ـ لك حق يا ست، لك حق..

وينهمك فى تقليب الطين ورعايته.. وفى الزيارة التالية ـ ودون أن يخبرها يحضر للفرع السماد الذى يحتاج إليه، ليزداد اخضرارا، وازدهاراً وحيوية.. وجاء صوتها الحاسم من الحجرة البعيدة:

ـ عم عبده الشاى، وساندوتش فى المطبخ، وسيجاره من البيه إلى جواره.

وتكاد الدموع تطفر من عينيه ـ كل الصوت القاسى هذا، وكل المظهر الحازم هذا، لا يخفى إلا الرقة التى تذوب حتى يبتذلها من

لايفهمون، شاى ساخن لك يا عبده يا أخضرانى، وطعام وسيجاره - ألم أقل لك هى إنسانة.. يا حزنى عليها وعلى نصيبها من الحياة.

الله يلطف بها، وبه - زوجها هذا لا يعرف عذاباتها هل يعرف أنها كانت تعيش مع إنسان مصمت لا يعرف قيمة الوردة، ولا الزهرة..شخط فيه مرة وهو يقول:

- أخضر أخضر، اكسر كل هذا الأخضر، ماله الأحمر البنفسجى، ماله الأصفر- لاكل هذه المزروعات تتغير، أريد لونا مبهجا، حياة - لا، هذا موت، هذه رتابة.

هو الأخضرانى يقال له هذا - لولا تجربة السنين يا عبده، لولا أن علمتك الحياة أن تصمت ما سكت لمثل هذا الكلام - من هذا الولد المعجبانى بنفسه، اقتحم حياة هذه الكريمة ليدمر كل شىء ويحصد كل شىء، ولكن الصمت علمه الحكمة.. وعادت الحكمة فعلمته الصمت..

اهدأ يا عبده يا أخضرانى، كلهم فى بولاق يعرفون عبده النقاش الأخضرانى لايدخل محلا ولاشقة إلا ويدهنها باللون الأخضر، حتى لو لم يكن صاحبها يحب اللون الأخضر – فلا لون عند عبده الأخضرانى إلا اللون الأخضر، لون الحياة، لون الحب، لون الزهو بالحياة، ولون الزهو بالحب.

يا ويل من يقول لا، أو يعترض.. هم كلهم كانوا يحبونه ولا يعترضون على لون نقاشته من الأخضر الفاتح، إلى الأخضر الزهرى، إلى الأخضر الزرعى، إلى الأخضر الغامق، كله أخضر فى أخضر.. ومن يفهم يحب ويسعد، ومن لا يفهم..؟

آه يا عبده يا شرانى كم امتدت يدك الغليظة لتصفع فى عنف، فإذا بالزبون يفترش الأرض الملوثة بالخضار، وحوله الخضار يطل من كل الحوائط، ويتركه لأهله يوقظونه.. وتمضى دون أن يجرؤ أحد أن يعترض طريقك العاصف وأنت تخرج من المكان كله مزمجرا هادرا.

وارتبط اسمك (عبده الأخضرانى) باسمك «عبده الشرانى».. والكل امتزج بالفرشاة واللون الأخضر ليصبح دائما عبده النقاش.

وذات يوم زاد حنق عبده الشرانى.. وامسكوك ودخلت السجن، فالزبون هذه المرة أصيب بارتجاج فى المخ، وكسور فى كل ضلوع صدره - كان قزما لئيما استفزك حتى نسيت أن ذراعك أطول من كل قامته وكان الذى كان.

وجاء الصوت من الحجرة البعيدة آمراً كالمعتاد، حازما كما اعتاد

- أنا أخرج لشغلى يا عم عبده فى العاشرة، ولكنى أتأخر يوم مجيئك فأنت لا تأتى ألا فى الحادية عشرة، هل هذا كلام؟

ويبتسم ويهدأ وهو يدخن سيجارة البيه الفاخرة - ربنا أكرمك يا بنت الأصول فهذا البيه هادئ ويفهم اللون الأخضر، أنا رأيته وهو يمسح أوراق الشجرة بخرقة مبللة ليزيل عنها الأتربة، لا.. هذا ابن حلال..

أكرمك الله يابنت الأصول، وربما يكرم زينب بمثله.

ومر حاملا إناء الماء يسقى الزرع، وهو يجيل عينيه فى باقى الزروع.. أبدا لن تموت زرعة خضراء وهو موجود يحمل هذا الإناء فى يد، وسكينة تقليب الطين فى يد..

في السجن أنقذني حب الخضرة من عذابات غيري.. بدءوا بفرشاتي الخضراء، ثم بدءوا يعلموني الخضرة الحقيقية.. خضرة الزرع، فقد كانوا يحتاجون لجنايني لا لنقاش، فكم عندهم من أبناء هذه المهنة عصبيون أبدا، ثائرون دائما.. ونهاية كثيرون منهم إلى السجن، فيتوفرون بكثرة.

وحين ساقوه إلى الحدائق أحس أنه يجد نفسه مع الخضرة الحقيقية.. خضرة خلقها إلاهك يا أبا عبده، لا تخلقها فرشاه.. أنه هو الذي صنعها ولونها وعدد ألوانها، وأكثر منها ـ من الحديقة تعلم عبده معنى اللون، ومعنى الخضار.. ورأى بعينيه معنى ارتباط الخضرة بالحياة ـ وأحب قطرة الماء تصنع صحوة للنبت الأخضر، وأحب أشعة الشمس تضع لونا للخضرة فإذا هي تختلف من نبت إلى نبت، ومن زرعة إلى زرعة، وجاءت الموسيقى من الحجرة البعيدة، هو يعرفها، ففي كل مرة، تأتي تضع همها في البيانو حتى ينتهي من عمله ويخرج وتنتج أصابعها نغما ـ اليوم النغم أخضر هو أخضر – هو أخضر.

وأحس بقلبه ينبض في عنف.. كان يريد أن يطلب منها أن تتوقف، ولكن النغم حلو، ينتقل من أخضر إلى أخضر. هل هو واهم أم هي حقيقة.. قلبه ينبض في عنف مع النغم.. متى ستتعلم زينب البيانو لتعرف هذا الخضار العظيم.

وأحس بالدموع تطفر من عينيه.. هذا أخضر باهت، هذا أخضر رقيق، هذا أخضر زرعي هذا أخضر برسيمي، هذا أخضر غامق، هذا أخضر شديد القتامة، هذا ـ يا إلهي هو أخضر أسود ودون أن يستأذن

منها حمل إناء الماء ونزل بسرعة، وهو يحس أن شيئا يمور داخله، شيئا يأكله، شيئا يدفع الدموع دفعا إلى عينيه .كيف رأى الأخضر أسودا ـ كيف..؟

وترك الإناء عند باب الفيلا، وأسرع يجرى إلى منزله.. ولم يكن فى عينيه من رؤى إلا النباتات التى أحبها فى هذا البيت الذى يحب الزرع الأخضر، كان يعرفها واحدة واحدة وكان يعد نفسه أن يحضر لهذه سمادا، ولهذه دواء، ولهذه شتلة، تعيد أحياءها بشيء جديد يرضى صاحبة البيانو، صاحبة النغم الأخضر،الذى تحول فى رأسه إلى نغم أسود..

حين غادر الفيلا كانت السيدة الكبيرة تلبس روبا أخضر، وتمسك بيدها جريده الحروف المطبوعة فيها خضراء، وكانت تنظر إليه متساءلة بعيون خضراء.

وأراد أن يقول لها، أن يحكي ـ هى ستفهمه ـ ولكن نبضات قلبه كانت قاسية، كانت مسرعة، ضاق صدره وأحس به يوجعه، فأسرع يجرى ويجرى، وجسده العملاق يهتز مع تنقلات أقدامه، وحركة ساقيه الطويلتين، وهو يندفع نحو المنزل المتهدم لم يبق فيه إلا زرعةخضراء مثمرة زهورا خضراء وابنة جميلة اسمها زينب فى عيونها اخضرار وثوبها أخضر.

ولم يجد الاثنين ولكنه وجد الشجرة فلثمها وطافت برأسه صورة سالى، فهتف لها فى قلبه أن يصونها وأن يصون لها نقاء قلبها، خضراء حلوة يانعة أبدا، خضراء كما الوجود والحب والحياة.. وتضخمت أمامه

صورتها فإذا هى خضراء الشعر، خضراء الجيد، خضراء العينين، خضراء الوجه خضراء الجسد.. وهمس:

- صانك الله يا خضراء..

وتاهت أمامه الرؤى واختلطت كل ألوان الخضرة فإذا كل شىء حوله دوامة خضراء.

وفى الصباح جاءت زينب للسيدة الكبيرة باكية وهى تقول:

- يا هانم أبى عم عبده الجانينى مات أمس.. و..

وخبطت الهانم على صدرها وقالت:

- عم عبده الأخضرانى.. ؟ كيف؟ كان أمس هنا وكان فى عينيه حديث يريد أن يقوله - ولكنه مضى من غير أن يقول شيئا.. يا ابنتى لا تراعى، كل مصاريف جنازته عندى، وعندنا كلنا خذى هذا وأسرعى إلى سالى فقد كان يحبها.. باكية صعدت باكيةِ حكت، باكية سمعت كلمات العزاء، باكية أخذت تكاليف الجنازة وتكاليف الصوت..

وقالت سالى:

- ياعم عبده ستبكيك كل شجرة هنا كل وردة.. كل ورقة خضراء..

وقال ابنه محمد وهو يطرق الرأس أمامها:

- كان عندنا يسميك الخضراء.. لا تغضبى منى.. ولكن هذا الفرع الأخضر فى هذا الإناء لك كان هو دائما يود أن يحمله إليك.. ولكنه كان يريده أن يكبر - ليحمله إليك وقد اكتمل.

قالت:

ـ هذا نبات العصفور الأخضر.

قال:

ـ إن كان هو عم عبده الأخضرانى، فقد كنت دائما عنده وفى حديثه معنا، السيده الخضراء، وكما كان يقول ـ خضراء فى قلبها خضراء فى كيانها، خضراء فى معنى وجودها ـ

همست:

ـ رحم الله عم عبده الأ خضرانى.

عطر الرغبة

-١-

من أنت؟..

من الذى وضعك فى طريقى؟

ما قدرك معى ـ وما قدرى معك؟

أهذا عذاب جديد؟

الصورة التى أحلم بها دائما للرجل الوسامة الأناقة الرقة، وأنه رجلى

يا عذابى، بعد كل التجربة والعمر، عبر بى الرجل..

ما كان أغنانى عن هذا المعنى. معنى الرجل بجسده، هذا الوجود الوسيم اللبق الرقيق.

ـ البرىء..

كلما اقترب منى شممت من أعطافه رائحة الورد ـ وكلما كلمته سمعت من صوته الرقة، وحس الفنان..

وتستهوينى البسمة واللمحة واللفتة والكلمة ـ ماذا بك يا بنت؟

هل أنت عاشقة.. أم ماذا؟

هذا هو الأغلب..

فما العشق؟ وما أنت، وماهو.؟

صبى هو.. وأنت امرأة ناضجة، أنضجتها السنون.. وأنضجتها التجارب.. وإنك تعيشين المثل والمعنى، ولا تحبين التدنى، ولا الاقتراب من الأرض.

هل أنت عاشقة أم ماذا؟

لا، بل أنت عاشقة

وماذا تعشقين فيه؟..

البراءة ربما ـ العذرة ربما.. أنه يحمر كله من جبهته حتى ذقنه، كلما نظر إليك ـ ربما.. وجهه الطفولى المدور، وشعره البنى المنسدل، وجسده العملاق رغم صغر سنه.. جسد رياضى متكامل، ويشى بجماله الإغريقى، قبل أن يدل بجماله الذكورى ـ ربما ـ

ربما ـ وربما أننى كنت أحس أن الأرض ساخت بى، ومادت تحت قدمى.. فأبتلعتنى كلى، وامتصت جسدى وروحى، ولوثتها بنفايات العالم.. ثم عادت ولفظتنى مره أخرى، وقد زاد فى عمق وجودى، إحساسى بأن كل مياه النيل لاتكفى لتزيل ماعلق بجسدى من طينة النيلة التى لونت شعرى، لونت جسدى كله،حتى أطراف أصابعى.. كل

شيء فيه غدا أزرق داكنا بلون النيلة ـ حتى روحى عرفت معنى النيلة .تخرج الريفيات فى قريتنا فى الصعيد، وقد لطخن طرحاتهن وجباههن،وملابسهن بالنيلة، وصبغن بها أيديهن وأقدامهن، صارخات مولولات فى وداع غزير مات..

وحين ينتهى المشهد تعود كل منهن إلى بيتها، منهن من يغسلن النيلة فى نفس اليوم، فالمسألة مجاملة فى مجاملة.. ومنهن من يتركن النيلة ثلاثة أيام، فالفقيد عزيز وفقده محزن.. ومنهن من تتركن النيلة فوق أصداغهن وجباههن وملابسهن أربعين يوما كاملة، فالفقيد أ.خ وابن عم، وقريب وصديق ..ومنهم من يتركن النيلة تصبغ وجودهن العمر كله ـ فقد كان الفقيد كل مالهن ـ كان هو هن،فحين ذهب هو، ذهبن هن.. والحزن عليه وعليهن، باق فى الأعماق، حيث يمتزج الحزن لفقده، بالحزن المر بأنهن أيضا فقدن، وأن لم يعز فيهن أحد، ولم ينح على قبرهن أحد، ولم يذرف لضياعهن أحد دمعة ألم، أو مواساة، أو عزاء..

وهى حين غاصت إلى الأعماق لطختها النيلة كلها، فضاعت وحدها..

نعم وحدها ضاعت، وفقدت ـ رغم إنها لم تغرق فى بحر النيل، ولم تتخبط وسط طينه النيلى أنا، يا أنت ـ ولست أدرى من أنت..؟ غرقت فى بحر من رمال ـ سائخة، أخذت قدمى وشدتهما.. ثم أخذت جسدى وغاصت به فى عمق الرمال المجهولة.. ومن يومها وأنا ضائعة ـ أحس عمق الضياع فى أعماقى ـ وعمق الفقد..

وتختلط فى رؤاى النيلة الزرقاء بالطينة الصفراء ـ تتناثر رمالها فوق جبهتى .. فوق عينى .. فوق أنفى .. فوق جسدى .. قطعة ، قطعة ، حتى يغوص الجسد كله ، وأغوص معه إلى عمق سحيق ، سحيق .. كأنه سجن العالم الأبدى لروحى المعناة .

هل عندك الفكاك ـ يا أنت ، يامن أنت ؟ ..

هل عندك الخلاص ..؟ هل كفاك يد هرقل تزيل الرمال ؟ هل أصابعك رماح عنترة تحفر لنفسها وجودا وسط الرمال ، وتحوطنى ثم تنتزعنى من وسطها ، من براثنها .. من جذبها الدائم المستمر لجسدى كله ، ليغوص ـ ويضيع .؟

كل ليلة ..هذا الكابوس المخيف .. كل ليلة هذا الرعب المخيف .

أحس حبات الرمال تتساقط فوق جبهتى ، حبة حبة ، حتى تملأ الجبهة والعينين والأنف والفم والوجه كله ، الجسد كله ، الوجود كله ، وأكفن فى ثياب من رمال ـ واغفو ولا أفيق ..

ـ٢ـ

كان حانيا ، رقيقا ، وكان فارسا أخرجته الصحراء من كل قصص بطولاتها ، وكان غازيا أخرجته ألف ليلة وليلة من كل قصص الحريم ، وأمراء الحريم ، وملوك الحريم فيها . أسمر الوجه ، أحالته الشمس إلى لحظة الدكنة الفاتنة ، فى لون لا اسم له ، ولكن له فتنته ووجوده الدال ، بسمرته الملتصقة بصفرته ، المرتبطة ببياض يأتى من جينات بعيدة .. ربما من فارس ، وربما من الشام ، وربما من مصر ـ من يعرف .؟

هو لون سحرى غامض لا يكشف سره، ولا يبوح بمعناه الصريح.. وإنما يظل غامضا يستهوى العين، ويخفق فى الصدر فى ألم وشوق..

وبالأمس طافت بى الأحلام، ولفتنى، تملكتنى حتى الأعماق..

كنت أعرف أن مثل هذه الأحلام تتملكنى قبل الموعد الشهرى المؤلم الدائم الذى أعيشه فى تعاسة من شهر إلى شهر - تسيق هذا التغيير الألم، التغيير الاضطراب، هذه الأحلام الصارخة، التى لا أعرف من أى مكان تجىء.. ولكن أعرف أنها تتركز دائما حول هذا الفارس البدوى الذى اغرقنى يوما فى صفرة رمال الصحراء الموحلة، وفى زرقة طينة النيل، والتى حين تجف فوق الوجوه التى لطخت بها.. تتشقق، فتؤلم.. تتشقق صفحة الوجه فتصبح مزقا شوهاء.. توجع القلب والصدر أيضا..

كنت غريبة وحيدة

صبية صغيرة وحيدة

زوجة مقهورة ذليلة، ووحيدة.

وترفق بى وحنا، فرقا غربتى وقهرى.. وأعاد إلى معنى الكبرياء والاعتزاز، والاعتداد بوجودى.. تدفق شلالا من حنان، ورعاية وفهم، فهز عمقا فى.. عمقا بعيدا لم أكن أعرفه حتى هزه وأيقظه بابتسامته الهادئة، ونظرته الباسمة، ورقته التى فرشها وردا تحت أقدامى المتعبة المتعسرة الذليلة.

ياصاحبى الصغير أنت بعد غرير.. تتعثر فى أولى خطواتك نحو طريق طويل طويل.. مرير مرير.. وفى عينيك خوف وحزن ودهشة.. كم تذكرنى بالصبية الوحيدة فى ذلك البلد البعيد تتطلع إلى كل الأشياء، وفى عينيها حزن ودهشة وخوف مرير..

.٣.

احكى لك فاسمعنى

حين قيل لى:

- مبروك، تم التعاقد، وستسافرين بعد أيام

لم أفهم ..

لم أفهم لم غمر الفرح زوجى (نديم) - كيف يفرح ونحن سنفترق. ولم يمر على زواجنا ما يدعو إلى السأم؟ كنا فى القاهرة، والإسكندرية، ومرسى مطروح، نعيش أحلى أيام شبابنا.. نأكل معا، نمزح معا، ندفن أحزان قهرنا فى صمتنا معا.. نتطلع إلى اليوم الذى يحوز واحد منا فيه ما يمكن أن يسمح لنا بوجبة فى مطعم أو بجلسة فى كازينو – نشرب البيرة، أو نأكل طبقا خفيفا، ولكنه شرب وأكل يساوى عندنا الملايين.. كنا نندفع صافيين محببين إلى كل لحظة لقاء، إلى كل لحظة متعة صافية، وكأننا نكتشف العالم.. كأننا نركب سفينة مجهولة وسط المحيط، نشاهد جزيرة مجهولة عن بعد، فيصبح بحارها:

- الأرض، الأرض..

ويجرى قبطانها ليقول صارخا فى بحارته:

- انزلوا الدفة، لموا الأ شرعة، وليحمل كل منكم سلاحه، وكونوا على حذر.

وأنا وهو كنا نلبس لبس البحارة، ونحمل سلاحنا من القروش الزهيدة التى تجمعت معنا على مدى أسابيع .. ثم نندفع إلى المكان الجديد المجهول - على حافة النيل - ندخله ونحن نرتعش، كالبحارة القدماء وهم يتلفتون حولهم حذر الرجال الوحوش، آكلى لحوم البشر، فى الجزر المجهولة.. ونتلصص محاذرين، ونتلفت حولنا فى محاولة صبيانية، أن نكون المغامرين الرواد .. وإذا بنا داخل الكازينو، وإذ بنا نجلس إلى مائدة على النيل، وإذ بنا نطلب طعاما وشرابا، ونضحك وننسى.. ثم إذا بالجرسون يقبل بفاتورة الحساب.. وننكمش، ونبحث بأعيننا عن الأعداء المحيطين بالسفينة آكلى لحوم البشر.. ونتضام،وكل منا يشهر كل ما بجيبه، وبالكاد ندفع، وبالكاد نمضى، وبالكاد نهرب من آكلى لحوم البشر..

ونخرج ضاحكين وقد تركنا قطعا من جلودنا ولحومنا فى أيدى (المتر) وجرسوناته - ندفع ونجرى، ثم (نبص) وراءنا.... هل يتعقبنا المتر لأننا لم نترك (البقشيش) المطلوب؟ هل يتعقبنا أهل الكازينو، لأننا كنا نحب، وكنا وحدنا نملأ المكان حبا ورغبة حلوة، وضحكة مجلجلة فى سماء المكان.. هل عرف الناس سرنا، واكتشفوه، وعرفوا أننا بحاره بلا مجاديف، وإننا قراصنة بلا سيوف، وأننا لصوص بلا أطماع.

ابدا لم يتعقبنا أحد ـ أبدا لم يعترض علينا أحد، ونحن نتراجع جريا بعيدا عن الكازينو، عن آكلى لحوم البشر عند حافة النهر العتيد ـ

وقالوا: سافرى أنت..

وقال: سافرى أنت، فهذه فرصة لا تعوض، وسألحق بك، حين تخلقين لى الفرصة هناك لأجد عملا، أعيش به إلى جوارك، وأعيش فيه حبك وحبى، ونبنى عشنا هناك، حيث الأمان، وحيث لا قراصنة، ولا لصوص ـ ولا مغامرة..

ونظرت فى وجهه لم أجد شيئا، ونظرت إليه ولم أجد شيئا.. ونظرت فى عينيه فوجدت لهفة عارمة أن يذهب هو لا أنا، وإلا فأذهبى أنت، وأفسحى لى الطريق لأتبعك، وأكون أنا ـ كل شىء...... فى كل النظرات كان باردا.

لملمت حقيبتى، وودعت أهلى، ونظرت فى عينيه فلم أجد إلا اللهفة حين قال:

ـ عندما تصلين إبحثى لى عن عمل، عن عقد، عن وجود، فأنت زوجة ومن حقك أن يكون معك زوج.. هم يوافقون على هذا فقط، إطرقى الأبواب، وتصبح الوظيفة لى.. وسنكون معا، نصنع غدنا ووجودنا ومستقبلنا..

الحزن ملأ قلبى من ساعتها ـ لا أعرف كيف تسلل، ولا متى.. ولا أعرف أين فاجأنى فدفن الحزن وجوده فى صدرى، وقلبى معا.....

أحسست بـه، وكم تعست بما أحـسست.. أحسست.. بدفق المشاعر الصادقة التى تفرزها لحظة أننا نحس، ويتدفق وجد هذا الإحساس فى أعماقنا البريئة الصادقة.....

كانت لـه عينان مثل عينيك، داكنتين عند الحدقة، ومتسعتين.. تملآنى هى كما تملؤنى أنت الآن.. وتحملانى كما تحملنى الآن، إلى عـالم من الحلم ـ هل أنت حلم؟ ودنيـا من الوهم.. هل أنت وهم؟ ولم أقاوم كثيرا، فآمنت بـه وأنا اتركه، وأحببته وأنا أودعه وأركب الطائرة وحيدة فى يدى حقيبة ثقيلة، وفى قلبى خوف كبير، وأوهام من مخاطر ركـوب الطائرة، وأننى وحـيـدة، ... وجـعلت أترقب وأنا آكل كـفى بأسنانى، متى ستقلع الطائرة، وأتساءل فى رعب: متى ستنهار ـ متى تندلع النيران، ويصرخ الكل، ويحتوينى العذاب، ثم الموت الأكيد..

ولكن كلماته الأخيرة وأنا عند لحظة الوداع قبل دخولى المنطقة المحـرمـة بالمطار، تملأ عـقلى وذهنى، رغم دوى مـحـركات الطائرة، رغم همس موسيقى تنبع من سماعات مجهولة فى سقف الطائرة، رغم غمغمات الركاب حولى، ورغم سؤال المضيفة الحانى:

ـ هل أنت متعبة؟ هل اتيك بشىء ساخن، أم مثلج ـ أم أنت تريدين قرص أسبرين؟ أشرت لها بيدى، ثم رحت فى غيبوبة.. هى مزيج من حـبى له، ورؤيتى لوجهـه وإبتسامـتـه، وأن رأسى تدور.. وذكـرى لمسات يده فوق كفى، ذراعى، وجهى، جبهتى.. وقبلة لا أعرف لها طعما الآن، ولكنه مر بشفتيه فوق شفتى، وهو يقول كلاما لا أفهمه، ولا أذكره..

وقلت للمضيفة:

ـ أريد أن أتقيأ..

قالت وهى تنصرف مسرعة

ـ الحقيبة الورقية أمامك فى ظهر المقعد

وانصرفت

ـ٤ـ

يا حبيبى ـ أحب نظرة الحزن فى عينيك..

يا طفلى .. أضمك فى ساعدى إلى..

يا أنت، يا صغير.. أسرِّح شعر رأسك الكث بيدى، وأهد هده طويلا، وأحنو على حزنك البائس الصامت، وأحس شجنك، وأساك..

يا حبيبى ـ من أنا لك..؟

زهو شبابك يمنعك أن تنظر إلى فما أنا إلا امراة، با عدت السنون بينى وبينك، ومع هذا فهى امرأة حانية، تدفئ البرد الذى يملأ قلبك.

وتتركنى وتصلى فى ركن الغرفة.. تحمل سجادة الصلاة وتفردها أمامى.. ولكنك لا ترانى، كأنك وحدك ـ تفردها وتصلى ـ وتصلى..

وأصمت أمامك، وأنكس الرأس، وهمسا أصلى.. وبعد أن اتركك، وقد انتهى حديث العمل الذى جمع يوما بيننا، أسرع إلى غرفتى أفرد سجادتى وأصلى وحدى.. وأصلى..

يا حبيبى، أحبك..

لابد أن أعترف أننى أحببتك.. أحرام هو هذا الحب؟

نعم أعرف أنه حرام، فأنت غنى.. وأنت برىء.. وأنت زهر عالم الحب كله، جمع فى باقة.. هى عيناك الخضراوتان.. كم أحب اللون الأخضر، ..جبهتك الشماء ـ وأنت لا تعرف شموخ جبهتك ـ استدارة وجهك، وأنفك يبرز وسط الوجه كأنه علامة طريق..

وحين أضمك حانية رءوفة حين ألقاك.. وكأنى أم تضم ابنها.. يفوح عطرك، ويفوح عطرى، وأنسى نفسى... حين يغمرنى عطر الرغبة ـ ودوامات تملأ رأسى.. تطن حولى، تدور وتدور، حتى أنسى أن أنظر إليك.. فأنا لا أحتاج أن أنظرك كى أراك.. أنت مجسم فى كيانى، أعرف كل وجودك فى داخلى ـ وأريد.. أريد أن أحتويك.. أضمك فألاشيك.. أدخلك إلى أعماقى وأذوب فيك.. وأحس بك ورأسك فوق صدرى تهتز كل جسدك يختلج، يريد أن يستجيب لضمتى... ولكنه يخشى ويخجل، ويهتز ويمور، ويضطرب..

آه منك.. ومنه ـ من ضمته الحانية الرءوف، يهمس فى أذنى، وبعطره الشرقى النفاذ يدخل إلى أعماق صدرى.. ويده الحانية تربت على ظهرى، وأسمع همسه يترجم إلى كلمات، تهز قلبى، وترعش جسدى كله، وهو يقول:

ـ أنت فى الأمان، أنا هنا لكى أحمى وجودك كله.. أحميك.. من غدر الرجل، وسطوة صاحبك الغبى.. ومن غربتك، ومن اضطهاد من حولك.. أنا موجود هنا، لا تخافى.

واتضام فى حضنه، واحس الحنان، ودفء العطف وأننى أضيع..

وتهب على معك رياح الخليج، أشم عطرها الملح، ممزوجا بروائح زهور البحر الوحشية، وبقايا قذف بها الشاطىء لحيوانات كانت يوما معنى الحياة فى البحر المخيف.. أخذها وامتصها، ثم غدت آخر الأمر اليافاً ململمة، ألوانها داكنة، أو باهتة، أو حمقاء.

أعرفت اللون الأحمق؟..

هو لونى ولونك..

لونى حين تخدر قلبى بكلماته، ثم ساقنى ذات مساء مريض فى قمره، ومريض فى ريحه، ومريض فى وجوده، إلى أن أركب معه لنرى الخليج.

كنت أعرف ـ أخبرك يا فتاى.. نعم كنت أعرف، أن زهرة البر سيغرقها البحر الملح، كنت أحس أجاجه، كنت أحس ملحه، كنت أخاف ظلامه وعمق سره ـ كنت أعرف..

ومع هذا صدقته، وصحبته..

رصيد من حنان دفاق، كان ينسينى أن الليلة يقدم عابد الصنم القربان لإله الحصول والشهوة.. أن الليلة ينتصر ابن الخليج الفاتن على أنوثة أخرى، ليضمها ذكرى وسط ذكرياته.. فكرة تخطر بباله فى ليالى خمره وسكره.. كلمة يضحك لها فى إقبال وسعادة حين تخطر بباله بعد حين.. كيف انتصر على الجميلة المتمنعة، على الزهرة الريانة التى عجز الكل عنها، هو وحده قطفها، عصرها ـ ملكها..

نعم، كنت أعرف..

ومفتحة العينين ركبت سيارته الفارهة.. مفتحة العينين قبلت ضمته فيها، وقبلت قبلته.. ومفتحة العينين، احسست بجسدى كله يثور لضمته، ولقبلته..

وكأنك هو يا حبيبى، حين تتخدر وسط أنفاسى، ويصرعك عطرى، عطر رغبتك.. وعطر أنك تتفتح على دنيا جديدة، لم تكن تعرفها من قبل..

-٥-

قبلته حين أرادنى، وبكيت حين انتهكنى .. وأفرغت كل مافى أمعائى، وبكيت.. ورحمنى.. وأنت قبلتنى حين أردتك.. وبكيت يا صغيرى حين انتهكتك.. ولكنك ازدهرت حين أخذتنى، وضحكت، وطربت. ولم ترحمنى..

-٦-

هو.. مرة لقيته فى بلدة خليجية أخرى، رأيته وعبرت.. ورآنى وحاول أن يقترب .. ولكنى تجاهلته وعبرت.. وكل جزء فى جسدى ينتفض ذكرى لليلة مخيفة على شط الخليج، وثقت فيه، وأعطيته.. وهاجمنى وهو لا يعرف أننى أعطيته.. وازدها بأنه أخذنى، ولم يعرف أننى فى الحقيقة أعطيته..

وعبر، وعبرت..

وفى عينيه رغبة عارمة لاتموت..

وفى عينى ذلةَ انكسارلا تبرح، ولا تموت.. وأنت..

اعتدت حبى وألفته، وغاص قلبك الغرير يبحث عن مكان فى قلبى.. ولكن، ياحبى، ياصغيرى، لا مكان لك فيه.. فهو قلب يعرف قدره.. هو قلبى.. لا يتوقف عند لحظة أنت فيها حمل وهو فيها ذئب قاهر .. فإن أحببت أن تعود ذئباً، ضيعت ما تريد.. ففروة الحملان تغطى جسدك.. والذئب فيك مات، يوم ذبت فى أحضان امرأة أرادتك ذات ليلة.. ثم أفاقت، على إنك طفل.. وأن المسألة عبرت، وتعبر، وستعبر دائما..

-٧-

تصلى وتبكى وتتهجد فى التليفون..

وأصمت وأبكى، ويهتز جسدى كله، وأغلق هذا التليفون..

- وهو أذكره وأنساه، وأعيش غيره.. ويظل حنانه رحمة.. ويظل وجهه الأشم رؤية. وأظل أنا وهو وصمة..

- تصلى وتبكى، وتتهجد فى التليفون..

- وأصمت وأبكى، وأحاول أن أنسى هزة جسدى، براءتك، طفولتك، عذريتك وأن هذا كان حتفى. وآه، أننى يوما أحببتك..

-٨-

هو.. حمل نعيه إلى الناعى.. فقط هى ذكرى أحاول أن أنساها، وأحاول أن أنسى نفسى معها.. أحاول أن أنسى ضعفى يوم كنت كل الضعف، مهيضة الجناح، ضائعة الهوية، غريرة التوجه والحياة..

وأنت.. يا أنت .. يا عـذابى، وحـبـى.. لم تنس أبدا النبع الذى نهلت منه.. فقد كـان سر تفتحك على الحـيـاة.. سران تعرف الحيـاة.. .. ونسيت نفسك، ونسيت من أنا.. ولم تترك وسيلةالا وحاصرتنى بها..

يا حبى، إتركنى فى سلام.. أنا أحبك.. ولكنى لا أستطيع أبدا أن أستمر فى حبك..

حبك.. يا حبى وصمة.. تملأ قلبى قروحا.. تملأ وجودى مرارة.

فأنا أعرف. وأنت لا تعرف ـ أننى كنت يائسة كيأسك.. ضائعة كضياعك.. ولكن شتان :بين يأس ويأس ـ شتان بين ضياع وضياع.

هو صاحب العطر الخليجى، الأسمر، أسر وجودى فخضعت لحبه ورغبته، وأنه ملكنى..

ولكنك أنت يا صاحب هذا العطر.. الرغبة أرادتك.. فأحببتك، فأخذتك، وضاع عطرك.. فلا عطر لك.. ولا عطر لك..

-٩-

هو.. كان سحابة، وعبر..

وعرف أنه سحابة وعبر

ترك الحياة كلها حين مات..

وترك الحـيـاة حين رحـمنى، وحـاول أن ينسـانى، ولم يذكـرنى بوجوده، ذات ليلة مريضة.. ورحل وعبر.. أما أنت يا حبى.. فلا تريد أن تنسى.. شغفك الحصول ـ فاندفعت دائما تريد المزيد من الحصول..

ولكن حصولك عندى لا معنى له.. فليس عندك غيره تقدمه لى - فاصمت، وابتعد..

-١٠-

وأنت لا تريد أن تبتعد..

أذكرك، أذكر عطرك يا حبى، وأذكر أنه كان لى عطر الرغبة.. وأذكر أن الرغبة دوامة كانت تمور فى.. تقتلنى - تشل تفكيرى، ثم حين الحصول، تعبر وتنصرف..

وأنت لا تريد أن تبتعد

فأنت يا حبيبى تعيش أبداً لحظة اللقيا المخيفة بيننا، فهى لحظة عندك لا تعبر.. ولن تعبر أبدا.. بل هى باقية لا تمر، ولا تبتعد..

وحياتك لك أنت.. وجودك لك أنت، الغد لك أنت.. يجعل منك غدك، كل الوعد.. وكل الوجود.. وأنك يا أنت - أنت لك.. أما أنا يا حبى الطفل المزهر فى وجودى كله، ذكرى وعبرت - حلم براءة، لحظة عودة إلى استشراف الطهارة، ولكنها لحظة أنا وأنت اشتركنا فى صياغتها، وانتهاكها..

فإذا هى لا تطّهر ولابراءة..

فانسى. وانسها، وانسنى..

وتطلبنى وأهجرك .. ولا أنهرك..

وتطلبنى وأبتعد عنك.. ولا أناسك..

وتطلبنى وأهرب منك.. ولا أحس فكاكى منك أبدا..

فأنت يا حبى عذريتى حين انتهكت، عبر رمال الصحراء.. .. وأنت يا حبى، عذريتى حين انتهكتها أنا فى حضن وجودك الطفلى.. حين أستهويتك، وأضعتك.. ولكنى دائما أحببتك..

عذرة الكون، تفتح البراعم.. معنى البراءة.. كل هذا، وأنت فيه كله - أحببتك.. والرفض حبى - ولكنك ابتذلته.

لم يبتذله الآخر، فالآخر أحب، وأخذ، ومات، وانتهى..

أما أنت، فقد أحببت، وأخذت وتريد المزيد.. ولا تريد أن تنتهى... وكيف غدى وهذا أمرك..؟

أنت برعم تتفتح.. وأنا زهرة ناضجة قد تمر عليها رياح الخريف، فتفقد وريقاتها الخضر.. وتتمزق، وتتألم وأنت لا تحس إلا أنك تريد.. وأنك عرفت يوما طريقك إلى ما تريد.. فأنت تصر، وتندفع.. وأنت تصر وتطلب، وأنت تصر وتتعقب حياتى كلها.. ووجودى كله.. بثقل أجنحة رخ خرافى لم أعهده، ولم أعرفه.

-١٢-

أرادت إيزيس أن تعرف سر الحياة، لتعيد لوليدها المقتول بسهام ست، معنى الحياة..

وأشعلت رع حبا.. وملأت وجود رع رغبة.. وحين اشتهاها، وهو رب الأرباب.. طلبت ثمنا لها، الكلمة السر.. الكلمة المقدسة -

وأعطاها رع سر الكلمة ليحوزها.. ونطقت هى بسر الكلمة فعاد حورس إلى الحياة والدنيا والناس بقوة الحب.. فقهر كل الخيانات الصغيرة، ليسود الحياة والحب، بكلمة الأمل، كلمة قدس الأقداس..

ورفع حورس إلى السماء وغدا ربا من الأرباب.. وغضب رع - ولكنه حين أفاق من خمرها وحديثها وخداعها، كانت قد عادت إلى الأرض ترعى حورس، وتلملم جسد أوزوريس..

ومنذ غمرتنى موجة الخليج الصفراء، وأنا أبحث عن معنى الطهارة فى البحث عن جسد أوزير الممزق، علّى أن أستطيع أن أساعد إيزا فى لملمة أشلائه وإعادته إلى الحياة.. ولكن إيزا لا يهمها أوزير إنما هى ترعى حور الجديد.. هو الوجود والأمل والطهارة..

وتمزقت الزهرة اشتهاء ا لمعنى المعرفة، وأن تكون صاحبة الصولجان.. فعرفت كل خمور بابل، وكل فرسان بابل.. وهى هى، ملتصقة بالأرض، أسيرة وجود متكرر لا يتغير ولا يحيد.. ولكن حين نزل هاروت وماروت إلى الأرض بحثا عن تحقيق السلام فى أرض بابل.. ذلك السلام الذى انتهكه كل أبناء هذه الأرض حين ظلوا يغنون حتى أضجروا الفجر، وظلوا يرقصون حتى أضجروا الظهر، وظلوا يشربون حتى اضجروا العصر، ثم ظلوا يتساندون حتى أجهدوا المغرب..... ثم انفجرت كل تعاساتهم، يضيفونها على كل من حولهم حول المعبد القديم.. فقهروا سر الكلمة حين أباحوها للزهرة، ملكة بابل..

وقهروا سر الرضا حين أصرت الزهرة على امتلاك الاسم الأعظم، واندفعت به إلى السماء.. إذا هى كوكب مظلم، يعيش على انعكاس قرص رع عليه فى ذهابه إلى نهايته، وفى عودته من جديد ليطل على العالم، مليئا متجددا أبدا بالدفء والخصب والوضوح، والحياة..

وعادت، وغمرتنى لحظة الحنان.. الحب.. الغدو، القصة الوليد.. ولم أدعه يهمس، وإنما احتويت همسه فى صدرى .. وضاع الولد، كما ضاعت البنت التى كنتها فى عمق الوحدة والخوف، والترقب، والصحراء، والرغبة والحصول.. بعدها أنا امتزجت أمعائى بكيانى، فرفضت هذا الكيان، وانهرت مريضة، أعيد كل غذاء يومى.. هو لم يفعل هذا ـ ولكن وجهه تقلص.. لكن الدموع ظفرت من عينيه.. وبكى، واحتويته.. وبكى واحتويته. يومها بكيت، ولم يحتونى أحد لا أحد ..وحيدة بكيت ولم يكن أمامى إلا معنى أننى قهرت، وأننى استسلمت، وأن ضعفى كان أقوى من أن أصون وجودى.

وبكيت، كما بكى، وامتزج دمعانا معا، ومددت يدى أعبث فى شعره، ومد يده يتشبث بشعرى .. وخبأ عينيه عن عينى.. وخبأت عينى عن عينيه..

وضممته فدلف إلى صدرى، يحتمى بى.. يحس أننى الأقوى.. ولا يعرف أننى الأضعف .. ولكن ضعفه يذوب فى قوتى، وقوتى تذوب فى ضعفه.. ونعود معا مجرد تجربة فى دنيا الإنسان.. مجرد زهرة تعيش على حافة العالم، أنستها الرغبة خصوصيتها وعاشت الرمز للمعنى وللجوهر، للخطيئة والعذاب.

وأضمه، ويضمني.. ويجمع دمعنا تيار رحمة يتدفق فوق وجنتيّ وفوق وجنتيه.. ويتلمس أن يرقا الدمع... دمعى وأتلمس ارفا الدمع.. دمعه..

وتلتقى شفاهنا عند دمعة عذاب.. وفى أمل توبة.. وفى عطر ينسكب منا.. ولا نعرف من أين يتدفق - ولكنه موجود أبدا.

هو عطر الرغبة.

-١٣-

ويا أنت إرحم ذكراى حين تذكرنى، ولا تقسو على..

فأنا رحمت آسرى وقاهر أمسى، وأرحمه كلما تذكرته..

ونرحم ضعفنا، ونرحم حبنا، وترحم أننا بشر، وترحم قدر الحب العظيم.

أرز لبنان المرّ

لا يدرى أحد كيف ظهرت هذه الأعشاب الخضراء فوق سطح السقف الذى دمرته قنبلة، فقد ظهرت أعشاب داكنة أول الأمر، ثم رويدا رويدا تحولت إلى كتل خضراء متفرقة، ومع الزمن تضامت هذه الكتل ليكتسى سطح السقف الأسمنتى المتهاوى بهذه الطبقة الخضراء اللامعة، وكان الصبى يرقبها فى انبهار. كان حين اشتد القصف العشوائى المريض يهدم كل المنازل فى بيروت، قد نزح مع أهله الى مكان بعيد فى الجبل، يدارى هناك رعبه ورعب أمه وإخوته، وترك البيت الحبيب يضم لعبه وألوانه وكلبه الأليف وزهراته التى كان يرعاها، وفى قلبه غصة، وفى حلمه أمل أن لايدمرها هذا القصف المروع الذى ينغص أحلامه كل ليلة، فيهب صارخا فى ذعر، لا تنجح ضمات أمه الحنون فى أن تهدىء منه، ولا تنجح قبلاتها الحانية الممتزجة بالدموع فى أن تهدهده، ولا تنجح نبرات صوتها الواجف

المتـقطع وهى تحـاول أن تحكى له حكاياته القـديمة المفـضلة فى أن تطامن منه، ولكن بعـد حين توقف القـصف اللعين، وامـسكت بـه أمـه تعيده إلى البيت القديم، فإذا البيت مزق، وإذا اللعب هشيم، وإذ الألوان سوداء، وإذا كلبه الأليف بقايا ممزقة، وكتم الصبى الصغير دموعه، أدخلها بعنف وإصرار داخل قلبه الصغير، وبدأ يعيش حول ما بقى من بيته القديم، فلا مأوى له ولا لأمه إلا هذا الحطام من الذكريات والألم. إن الأب ضاع مثل من ضاعوا بلا سبب، وإن الأخت ماتت تحت ركام رماد بيت محترق، وان الدموع جفت، وان شيئا لم يتغير فى بيروت إلا أنها لم تعد بيروت، وأن الكل ينسى هذا، ويحـاول أن ينسيه للصبى الصغير.

ورأى الأعشاب الداكنة أول الأمر فدهش، وراح كل صباح يهرب من حـجرته التى تخترقها الرياح فهى بلا جدران، إلى هذا السطح الأسمنتى الذى كان يوما سقفا لحجرة ضمته هو وأخته، فماتت تحته أخته، وخرج هو تشده إرادة أمه. امرأه تحبه، وتؤمن به، فهو كل الحب الذى بقى لها وسط دمار بيروت، الغانية التى لقيت قدرها على يد عشاقها الذين جمعتهم حولها دون أن تحسب حساب غدرهم بها يوم يعرفون، كم هى مبذولة لهم جميعا.

وكانت فرحة الصبى كبيرة يوم راحت القتامة من هذا العشب الغريب، وبدأ يكتسب اخضرار الحياة، ويعود يزهو بألوانه، باهتة أول الأمر، مخضرة بعد ذلك، ثم زاهية الخضرة كما تطالعه كل صباح.

وكل صباح يندفع الصبى إلى الخضرة الزاهية، إلى الحياة المتفتحة، يلعب فوقها، وقد نسى أنها السطح الذى سقط فوق أخته الصغيرة فأحالها مزقا وعصارات.

وكانت قمة فرحة الصبى يوم رأى زهرات ببضاء تملأ السطح الأخضر. وأسرع يخبر أمه باكتشافه الجديد السعيد، وهرعت أمه لترى ما يحكى ابنها من أمر الحياة التى تولدت من الموت ودمعت عيناها وهى ترقبه يجوس خلال الزهر الأبيض، يحنو عليه ويشمه.. وتحولت الدموع الى بسمة أمل وإشراق وحنان. وفجأة، ومن وسط الزهور الرقيقة البيضاء، اندفع ثعبان صغير، لايدرى احد من أين جاء، ولا كيف استكن فوق هذا السطح المخضر، ولدغ الصبى الصغير.. وتهاوى الصبى، وصرخت أمه كما صرخت من قبل، ثم جفت دموعها وتحجرت كما تحجرت من قبل، ومدت الأخت ذراعيها لتحتوى الصبى الصغير.

- ٢ -

كان الثلج يملأ سفح الجبل، وحولنا يمور شباب ضاحك يتقاذف بكريات الثلج.. ينزعها من سفح الجبل، ورمتنى بكرة من ثلج كورته فى حضن كفها، ولكن الثلج ذاب قبل أن يصل إلى جبهتى، وضحكت، وصفقت بيديها طربا وبهجة، وتراجعت إلى وراء وهى تقول:

- التقط لى صورة، كم أحب أن تصورنى وأنا وسط هذا الثلج الجميل، ليس فى بلادنا ثلج، وليس عندنا جبال تزينها هذه الغلالة البيضاء النظيفة.

وحين رفعت الكاميرا إلى عينى، انزلقت قدمها فجلست وسط الثلج.. وضحكت، وأطلقت الرياح شعرها من عقاله، فماج حول وجهها، وغلفه.. وحين نظرت فى عدسة الكاميرا لم أجد وجهها، فقط غلالة من شعر تتماوج.. وبحثت عن وجهها كى أركز العدسة عليه فإذا هو محاط بثلج كثيف، وإذا هى تنزلق وسط الثلج الذى يغطى حافة الجبل.

وجاءنى صوتها وهى تضحك، وتطلق الكلمات مرحة راقصة وسط ضحكاتها:

- إنى أنزلق، يحتوينى الثلج، قدمى تغوص فى قلب الجبل

وعدت أنظر من عدسة الكاميرا، فإذا هى غلالة من ثلج تدخل منزلقة وسط فتحة تبلغ القدمين، الساقين، الجسد كله، ثم الوجه، ومازال الشعر يتلوى وسط الريح وكله ندف من ثلج.

رميت الكاميرا وأسرعت إليها وقلبى يتواثب فى صدرى رعبا، وأمسكت شعرها.. كان كتلة من ثلج، وضحكتها ما زالت تتجاوب بين جنبات الجبل، وضغطت على الشعر أرفع رأسها، فذاب شعرها كما ذابت كتلة الثلج كورتها من قبل فى حضن كفها.

وامتلأت عينى بالدموع، ثم انداحت إلى وجنتى، دموع مثلجة قارصة البرودة، وحين مددت يدى أزيلها، ذابت كما ذاب الثلج فى كفى..

حين طبعت الفيلم، كانت كل أحداث اليوم مسجلة على أوراق الصور، ورقة واحدة لم يكن عليها إلا غلالة بيضاء داكنة، كأنها شعر كثيف أبيض، أو كأنها ندف ثلج تتساقط فوق ورق الصورة.. وحين مددت يدى ألمسها ذابت بين أصابعى، وتقطرت دمعات تتسلل من بين أصابعى

- ٣ -

- قال لها يسألها:

- هل قتلنا أحدا؟

ضحكت، ورمت شعرها إلى وراء بهزة من عنقها، ثم مرت بيدها على شعرها المتطاير وهى تقول ساخرة:

- من هذا الذى قتلناه، وكيف قتلناه ونحن نأكل الأيس كريم ونسير.. على كورنيش البحر، فى قلب بيروت الصاخب

قال:

- بل قتلنا كثيرين - كما قتلوا بيروت، ودمروا قلب بيروت الصاخب
سكتت وأجالت نظراتها فى وجهه، ثم قالت:

- لست أفهم؟

قال:

- أتعرفين من قتل بيروت؟

قالت:

ـ بيروت تعيش، حية، صخابة، ضاحكة.. ألا ترى الشباب يتسابقون بالموتوسيكلات، ويتصادمون ضاحكين بالعربات؟ والفتيات يشربن النرجيله، ويلبسن الميني جيب، ويصخبن في زهو الصبا والحياة.

عاد يقول:

ـ أتعرفين من قتل بيروت؟

قالت في حدة:

ـ هل تعرف أنت؟

قال:

ـ أعرف.. أنت قلتيها ـ انت، وأنا.. وكل الضمائر الظاهرة والمضمرة ـ انا وأنت وهو وهي وهم وهن ونحن.

قالت:

ـ الآن عرفت.

ـ ٤ ـ

شاهت كلمة اخترقت القلب فأدمته، ثم هي حين أدمته، نسيت، واستراحت واستنامت إلى وقع صوتها الآمر.. والقلب حين اخترقته الكلمة نزف دمه، وحاولت أن أمد كفي أجمع الدم النازف، وأعيده إلى الجرح المتهرئ الذي أحدثته الكلمة ـ ولكنه كان يعود فيتدفق إلى كفي من جديد ـ وبعد حين أدركت عبث ما أفعل. فالدم ينزف ، والجرح يعود فيرمي الدم الذي أحاول أن أعيده اليه.. فتلمست الجرح .. حوله

لحم مهترئ، يكبر مع تدفق الدم منه.. كأنه برعم تفتح فبان ما فى داخله كله، وأصبح مباحا لكل عين، ولكل نسمة هواء، ولكل فراشة تنشد رحيقا، ولكل نحلة تريد طعام يومها، وطعام مليكتها الآمرة فى مأواها المبجل، ينقل إليه الشغالة رحيق كل القلوب التى جرحتها الكلمة، ونزفت وجودها القانى المرير.

وأمسكت أوراق الوردة أحاول أن أعيدها إلى مكانها حين كانت برعما، واستعصت على الورقة الأولى، وغرست، رمحا من ألم فى وجودى، وهى تصرخ:

ـ لا.. أنا النقاء حين كان النقاء ـ وما أخطأت، وإنما هو اندفاع وجودى النقى أدخلنى التجربة، فلا تقسو على.

فمددت يدى إلى الورقة الثانيه أحاول أن أعيدا إلى مكانها حيث كانت برعما، فتشبثت بمكانها وسط دمى الذى بدأ يتخثر، وصاحت:

ـ لا أنا الشباب حين كان الشباب.. وما أخطأت، وإنما هو نزق الشباب تحكم فى وجودى، أعنى دم الشباب ودفئه، وحبه للتجربة

وتركت الورقتين، وأنا أحس بالضعف يملأ وجودى كله من نزف الدماء يتدفق من القلب الدامى لا يتوقف نزيفه.. وحاولت أن أعيد الورقة الثالثة ـ ولكن كتلا من الدم المتخثر الذى بدأ يتجمد حاولت دون حركه الورقة ـ وصاحت الورقة متألمة:

ـ لا.. ضغطك يوجعنى، ولماذا أنا؟ أنا لم أكن إلا الأنوثة، عرفت طريقها إلى الحياة، وتفتحت، ولا تريد أن يفوتها من وجود الأنثى متعة أو تجربة.

وأحسست بجسدى كله يرتعش، فالدماء المتدفقة لم تجعل فى كفى قوة، وأنا أحاول أن أضم الورقة الرابعة إلى حيث كانت حين كانت الزهوة برعما وفى ألم عظيم قالت:

- ابعد يدك عنى، ألا ترى؟ لقد تجلط الدم حولى، ولم أعد أقوى على الحركة، الا بصعوبة شديدة، كل حركة تولد ألما.. أتريد أن تؤلمنى؟ ألم تعرف أننى التجربة.. والتجربة قالت عيشى الحياة، وإلا فاتك قطار الزمن، والحب والحياة.. فعشت التجربة، وسط وريقات غيرى، اندفعن جميعا وأنا معهن.. نرتشف من بحار المتعة العابرة، ونعيش الآن، قبل ان ينتهى الآن.. أتلومنى؟ كل ما فعلته كان سباقا مع الزمن، وخوفا أن يفوتنى الزمن، فأعيش الوحدة والخواء..

وغامت الدنيا أمام عينى، وتراقص الوجود حولى.. كنت أعرف أن شيئا يشدنى إلى القاع، ولكنى كنت أعرف أن أملى الوحيد هو أن أعيد الورقه الخامسة إلى مكانها، يوم كانت المكملة لدوران البرعم.. ومددت يدى المرتجفة أحاول أن أعيدها إلى مكانها حيث كانت، ولكن صوتها الباكى الشاكى جاءنى ليغرس فى وجودى كل معنى اليأس والمرارة، وقالت:

- اتركنى فى حالى، كنت أنت المرفأ والأمان، كنت حبى، ويئست حين تركتنى، وخفت أن يفوتنى أمل الحب الوحيد.. فخنت حبى، وتجلط الدم حولى، فلا أتحرك.. وأعلم إنك حين حاولت أن تعيد الوريقات الأربع قبلى، تركتنى فى حضن اليأس والعدم.. والآن لا

أتحرك، فقد امتدت جذور الأثم فشلت كل وجودى ـ أتركنى كما أنا، وإلا مت.

واستمر الدم ينزف من جرح الكلمة، وترنح وجودى كله، وتهاوى جسدى.. وبدأ كل شيء ينصب فى.. ومن بعيد رنت أصداء الكلمة والظلام يلفنى ويحيط بى. ومع آخر قطرات الدم ينزفها قلبى، سمعت الكلمة التى شقت قلبى حين اخترقته ـ كانت الكلمة هى

ـ أحبك

وتاهت عينى تبحث عن مصدر الكلمة، فلم يطالعنى من بيروت الا حطام العمائر، وصمت القبور يطل من النوافذ دمرتها القنابل، وشوهتها النيران.

ـ ٥ ـ

كانوا صبية وصبيات فى عمر الورد الوسنان يريد أن يتفتح للحياة، وعند ركام الدمار وقفوا يضحكون، وترفع واحدة عصاة فى آخرها كلمة (توقف)، والبريئة ترتدى الميكرو جيب، ومعها ولد يرفع لافتة أخرى تحمل كلمه (ستوب) بالانجليزيه.. ويتضاحك الجمع كله، وأمامهم مدرستهم و مزينة معطرة، رقيقه فى اختيار ثيابها، التى تكشف عن كل ساقيها.. وتقودهم عبر الطرقات، تقف لهم كل السيارات حين يرفعون لافتة مما معهم، أو أخرى، ثم يقفون عند الانقاض.. عند بقايا عطاء، وحياة، وضحك، وصخب، ومتعة.. وأن الحياة نسمة وعد، ووجود حب، وأمل ومتعه.. انقاض ساحة الاسواق.

ولا الأسواق بقيت ، ولا الحياة حفظت سرها المكنون الكل هنا مات، معنى الوفاء، معنى الجوار، معنى الصداقة، معنى الوطن الكل قتل الكل .. والعمارات تهاوت، والمشارب تحولت إلى دخان.. والفنادق والمسارح ومرح بيروت ووجهها الحلو، تحول إلى أسمنت ملتو، يتساند بعضه إلى بعض، ليحكى قصة مجد كان، حب كان، ألق كان، زهو كان ـ حين كانت بيروت هى بيروت.

ويتضاحك الجميع وهم يستوقفون العربات بلافتتاهم الرقيقة، ويعبرون إلى ساحه الشهداء، حيث الكل دمار، والأصوات ماتت، والشيء مات ـ ويستهويهم أنهم شباب، وأنهم دم فائر، فيصرخون ويصفقون، وسرعان ما يغنون، ويتشابكون، ويرقصون دبكة لبنان الحلوة والرقص فوق الانقاض. ولا فتاتهم (توقف)و (ستوب)لن توقف عجلة الزمن، ولا سير الحياة.. من مات مات، وما تقوض تقوض.. هم فقط غارقون فى الدبكة، ورقصتها الحلوة، وأنهم شباب.. وأن ما ضاع ضاع.

ـ ٦ ـ

فجأة اندفعت العرافه الغجرية تعترض طريقهما، كانت تمسك بيدها مسبحة طويلة، وتزجج عينيها بكحل ثقيل، وتلملم شعرها الكث برباط عريض أسود، وصاحت بها.

ـ ياصبية، اتركينى أحكى لك، أنال لا أريد نقودا، أحب فقط أن أنظر إلى عينيك، أحكى لك واسمعى.. أنت محسودة، ولا أحد يفهم ما فى

داخلك من طيبة.. امرأة حسود دمرت حياتك، لأنها حسدتك، وأنت عانيت الكثير، ولا أحد يفهم ما في قلبك من مرارة، .. إثر مرارة .. إثر مرارة.. يا عينى عليك، خافى من حب قديم، وخافى من صديق تحبينه حبا، وخافى من عزول يدس السم فى العسل،.

ثم نظرت إليه، واجتاحت بعينين مزججتين وجوده من رأسه حتى قدميه، ثم مصمصت شفتيها، وقالت وهى تهز اردافها:

- وخافى من قلب لا ينام

ومدت هى يدها إلى حقيبتها تخرج للعرافة نقودا، وقد امتلأت عيناها بالدموع.. ومد هو يده يمسك يدها، يمنعها أن تعطى المرأة شيئا وقال:

- هو كلام محفوظ، هو كلام محفوظ

واطرقت برأسها، وحين رفعت رأسها من جديد رأت لمعة عينيه الغاضبة، فارجعت النقود إلى حقيبتها، وصمتت، وهى تمضى إلى جواره...، وصوت المرأة يتبعها وهى تقول:

- ياصبية أنت محسودة، أنت محسودة، ولا أحد يفهم ما فى قلبك من مرارة، إثر مرارة، إثر مرارة، إثر مرارة..

- ٧ -

قالت:

- أنت تكتب فى الظلام - أضئ النور إلى جوارك، والا ستضر عينيك بالكتابة فى الظلام..

وكـانـت الكلمـات عند سن القلم، ترددت الكلمـات حين اقـتـحـمـهـا الصوت الثانى.. كان حديثنا يتدفق بلا توقف.. كنت أنا أحس، وكانت هى (الكلمات) تتراص مسرعة فوق الورق بكل ما فى داخلى من حلم لا يبين، كـأنه الغبش لا يكشفـه النور.. هى وحـدة مـتـرجـمـة، مـقـولة، مـتـجـسـدة، ولن أعـرفـ هذا الحلم أبدا إلا حين تـرسـمـه الكلمـات فـوق الورق، بـحـروفها، وتعرجاتها، وتشويهات خطى الأعرج..

وجاء الصوت يمزق ما بيننا من سر هامس، لا يعرفه أحد ـ وكادت الكلمـات تفلت، ولا تـعـود. وتـوسلت إليـهـا أن تبـقـى لنكمل مـا تقـول. لحظات، لحظات، نكمل ما بـدأناه.. عـبـث أن تتـوقف الآن، وقـد كـاد الجنين أن يقترب من النور، كاد أن يرى النور، كاد يبعث حيا..

وقالت:

ـ قلت لك أضىء النور، كيف تكتب فى الظلام.. أنا أخاف عليك

واهتزت الكلمات وهى تحتضر فى ألم، وتحول المخاض الوشيك إلى أجهاض عنيف. وبرزت الدماء من الرحم، والصرخات تولول حولى، وصمت:

ـ سأضىء لك كل النور، كل النور

وقـفـزت أضىء كل الانوار، هذا وهذا، وهـذا، وسـبـحـت الـحـجـرة فى بحر من نور.. غرقت فيه الكلمات وماتت فى صمت..

وبكيت. ومزقت الورق، وحطمت القلم

وكانت تصرخ

ـ هل جننت، ما كل هذا النور؟ لا هذا كثير.. ما كل هذا النور؟

همست وأنا أمزق الورق في يأس:

ـ أنت لا تفهمين.. ما عاش في الظلام، يولد في الظلام، ويكتب في الظلام، فإن فاجأه النور، بهت واحتضر.. صمت ومات..

ـ ٨ ـ

قال وهو يستمع بإ صغار إلى كل ما طلبناه منه :

ـ تكرم عينى

ثم سبح في حركة رقيقة كأنه راقص باليه محترف، وغادرنا، ليعود بعد حين محملا بعبء ما طلبناه.. ونظرت في عينيه أبحث عن التمرد، عن القلق، عن الرفض ـ أبدا هي نظرة حزينة، لا ترمي بظلالها على ضحكته المرحبة المرحة وهو يقول:

ـ طلباتك سيدى، تكرم ـ بتريد شيء

أطرقت برأسي، وأنا أحس مرارة تملأ قلبي، وأنا أتابع صحون الطعام يرصها.. لم يفقد ابتسامته، فقط انحنى في احترام النادل المحترف وقال:

ـ تكرم عينى

قلت:

- لم أفهم، وأنت لم تعطنى أى دليل ينير طريقى

عاد يضحك ضحكة مجلجلة هذه المرة وهو يقول

- يا سيدى تعلمنا من سبعة عشر عاما من الحرب الغريبة، أن ابن لبنان عليه أن يضحك، ويبتسم - مهما دمى قلبه، ومهما نزفت جروحه، ومهما كان إن كان جاره هو الذى قتل أخاه.

ثم قال

- تكرم، تريد شيء تانى، تبولة - كبة، فتوش، بوظة، تؤمر، أمر

وسبح فى حركة رقيقة، كأنه راقص باليه محترف، وذهب ينحنى أمام منضدة قريبة جلس عليها زبون جديد.

- ٩ -

قلت لها:

لماذا هجرته، وطردته من وجودك..؟

قالت فى إعياء:

- لم يعد يسبح باسمى، لم يعد يلهج بوجودى - خان - فطردته.

قلت لها:

- عاش عمره لا شيء على شفتيه سوى اسمك، ولا نور فى قلبه إلا رسمك، ولا حياة لأنفاسه الا بترداد حبه لك.

قالت فى إعياء أشد:

- كذبا كان عمره، ولم أكن على شفتيه الا ليتأكد وجوده، ولم يكن رسمى فى قلبه إلا شعارا يخفى أنه يتاجر حتى بنورى، اما أنفاسه فلم تكن تردد إلا اسم الدولار.. أفهمت..؟ اتركنى.. أرجوك

قلت لها:

- ولكن جراحه نزفت دمه وهو يدافع عنك، ولكن جسده تمزق وهو يحمل السلاح من أجلك، ولكن صوته بح وهو يهيب بالكل أن يرفأ دمعك

قالت وصوتها يتمزق إعياءا وتعبا:

- وحدى أعرف أن جراحه كانت من صنع الماكيير.. وإن مزق جسده كانت من صنع صاحب الخدع السينمائية، وبحة صوته كانت من تلقين شيخ الممثلين فى عصره - باع وقامر - ثم انهزم وانكشف، ورأيت كل شيء، وعرفت أنا وحدى إنه خان.. وكان دائما يخون.. فطردته.

وبيروت لا تخدع طويلا، ولا تلدغ من جحر مرتين.

- ١٠ -

كثيرون جاءوا من كل مكان وقد جذبتهم أنغام الدبكة، ووقع اقدامها (هى) فوق صخرة الروشة الفريدة تغتصب مكانها من البحر اغتصابا. كان للصخرة تاريخها الحافل، وكان لها (هى) أيضا تاريخها الحافل -

اما الصخرة فكم سمعت أمامها على الشاطىء همسات العشاق تتعانق أياديهم وهم يتعلمون من البحر الممتد معنى الأمل الممتد والبقاء الدائم، ويتطلعون إلى امتداده علهم يستشرفون ما يخبئه لهم الغد الغامض البعيد. وكم صعدت على صخورها نفوس لاهثة زائغة العيون، معذبة الضمائر، ملأها اليأس والجنون، وأن ما تعيش له مات فى داخلها.. ويصعد أصحاب هذه النفوس إلى أعلى الصخرة، وقد أعتمت أعينهم ضبابات لا يعرفها أحد - ثم يقفزون من فوق صخرة الروشة، صخرة الموت الأكيد كما اسماها الكثيرون، ويتحطم أمل، وتتحطم حياة.

و (هى) فوق الصخرة العتيدة ترقص على نغمات الدبكة، وعند الشاطىء أمامها جمع غفير يرقص معها، ومع وقع أقدامها فوق الصخرة، ومع موسيقى تأتى من حيث لا يعرف أحد.

والكل يرقصون، ويتحلقون، ويتماسكون، وتدور بينهم طقوس الدبكة الحية المعطاءة، التى لا تعرف الا حس الشباب، وعطاء الشباب، وحركة الشباب الثرية، المتكررة الى حد الخلود - وكم يخلد الرقص، وكم يخلد النغم..

ويمتلئ الشاطىء حول الصخرة بهم، وبجموعهم.. جاءوا من بلاد قريبة، وجاءوا أيضا من بلاد بعيده.. أموالهم تتقدمهم، يزرعون الروشة حدائق غناء، وقصورا فاخرة، ومغانى فيحاء تصيح بالنغم الحلو، وأصوات المغنين يحيون الحياة.. وهى ترقص فوق الصخرة، وترقص، يسعدها أن يزداد الشاطىء أمامها بهاء وجمالا ورونقا، وأن المال وفير،

وأن الكل يطرب لرقصتها فوق صخرة الروشة العتيدة، ويعجبون كيف تستطيع إن ترقص فوق حافة الخطر، وأمام مهاوى السطح الأملس المخيف.

واقبلوا من كل مكان، كل شيء فى بابل مباح، وملكة بابل فتنة الفتن، وروعة الرقص، وقمة السماح، فكل شيء معتق كخمر بابل، منعش كخمر بابل، كما أن كل شيء مباح عندما تتحكم خمر بابل.

بذلت الأموال والمهج، بذلت الأفكار والقيم، بذلت الأوطان والمثل، وأشتد الحوار، وماج الجدل. والكل عند الروشة أحرار طالما يدفعون، وطالما يشربون.. وطالما خمر بابل تغذى أرصدة البنوك، وترفع أسعار البورصة، وتؤكد معنى الأسهم.. والكل يعيش فى تدفق الحياة، ومعنى الاختلاف الحر، ومعنى العرض والطلب، يوما، ارهقت النفوس إلى حد التحدى - نسى الناس أنهم فى حضرة الصخرة، وفى حضرة الراقصة فوق الصخرة - نسى الناس أنهم فى حضرة شيء اعترفوا بقدسيته، وصانوا هذه القدسية.. نسى الناس أن الاختلاف الحر شيء مقدس، فتراشقوا أول الأمربالكلمات، والكلمات منية ومصارع.. وتهاوت رموز تحت وقع الكلمات المنية، وسقطت جباه شم شجتها الكلمات المصارع - فتراشقوا بالأحجار، والسهام، والحراب ثانى الأمر.. والأحجار حين تتطاير لا تعرف هدفا محددا، فهى توحى بالثقة لمن يمسكونها، فيرمون بها إلى أبعد ما فى جهد أيديهم، وتصيب بعد هذا من تصيب.. والسهام تفوق وتطلق، تخرج بأقصى جهد السواعد التى تطلقها، وتمزق

أجساد من تصل إليهم، أرادها مطلقوها كهدف لهم، أم لم يريدوها.. والحراب حين تخرج منطلقة ووراءها كل قوة الجسد، تنغرز فى كل جسد يلقاها، يتقلص من وقع حافتها المدببة، ثم ينطوى، ويموت

وتهاوت الأجساد، تتمزق وتتحطم، وهى لا تعرف من الذى أصابها ولا ما الذى أصابها.. حجر من؟ سهم من؟ حربة من؟.. الكل فى الكل، قاتل ومقتول ـ وتحولت الأحجار والسهام والحراب إلى مدافع ورشاشات وصواريخ، وحل الدماربأرض العمار. وسكت كل صوت إلا اصوات الغابة، أفاعيها تفح، وذئابها تمرح بليل، ونسورها تنقض على جسد فيه نبض حياة.. والزئير والعواء والضجيج، اختلطت كلها بالأنين وصرخات الألم المذبوح، وبكاء طفل يحتضر.

وفجأة دوى صوت انفجار رهيب دمر كل مبانى المدينة، وزحفت أشلاء الأسمنت إلى الروشة فاجتاحت من فيها.. وصمت صوت الدبكة، والتفت من بقى إلى حيث كانت (ـ هى) فوق قمة الصخرة العاتية، فإذا مكانه قد خلا، وإذا الغروب الشاحب يضفى على البحر وراء الصخرة لون الدم القانى ـ وصرخ أحدهم وهو يشير إلى سطح الصخرة.

كان جسدها الممزق مصلوبا فوق نتوءات الصخرة العتيدة، وقد غمره شحوب الغروب الدامى، والبحر تحتها يمور بموج صاخب، وريح عاتية تضرب جسدها الممزق الحزين.

أطرق الجميع فى صمت ـ وقد جفت دموعهم فوق المآقى.. حزنا.. تعسا، الما ـ يأسا.. ندما ـ لا أحد يدرى.

ومن بعيد دق ناقوس فى كنيسة، وارتفع صوت آذان شجى التراتيل، حزين النبرة، ثم ارتفعت تراتيل قدسية.. وسجد الجميع فى ندم، وفى القلوب، وعد أن تعود بيروت من جديد.

الكابوس

أكتب ....، أكتب، وأكتب.. السؤال واضح، ولكنى أعرف الإجابة.. بل لعلى الوحيد وسط كل الممتحنين الذى يعرف الإجابة الكاملة والصحيحة والوافية..

فالسؤال يقع ضمن تخصصى.. ضمن أبحاثى العديدة.. الإجابة لن تكون إلا تلخيصاً للكثير من الأبحاث التى سبق أن كتبتها فى هذا الموضوع بالذات، فى جوانبه المختلفة، فى زواياه المتعددة.

ولكنى أكتب على قماش يتقلص، فتنثنى الحروف، وتضيع معالم الكلمات، ويقفز سطر على سطر، وكلمة على كلمة، وحرف على حرف.. ولست أستطيع أن أتصور أن المصحح سيعرف كيف يقرأ هذا الكلام.

ولكن لابد أن أكتب ولابد أن أنهى إجابتى عن هذا السؤال، فهناك سؤال آخر لا أعرف الإجابة عنه، بل لا أعرفه على الاطلاق.

أعطونى حين حرروا ورق الأسئلة، قطعتين معدنيتين، واحدة على شكل نجمة صغيرة، والأخرى على شكل مكعب غريب، وكل واحدة ملفوفة فى ورق رقيق، أو لعله في كيس نايلون أبيض شفاف رقيق.. ولكن من لحظة لامست أصابعي ما أعطوه لى، عرفت أننى لا أعرف عنه شيئا.. ليس فى كل خبرتى، ولا معلوماتى، ولا قراءاتى، ما يحدد أى شىء، أو يدرك أى شىء، فى هاتين القطعتين.. ونحيتهما جانبا - لا يهم - حتى لو ضاع السؤال حولهما، فهذا لا قيمة له، إجابتى عن السؤال الأول كفيلة بأن تغطى الدرجة المطلوبة للنجاح، حتى لو أخذت صفرا فى هذا السؤال الغريب الذى لا أفهمه.

ومرت الدكتورة نادية من أمامى، بوجهها القبطى الجمال الجاد الملامح، وجسدها الصغير الفائر، هى المراقبة، ماذنبها أن جعلوها المراقبة؟ وقالت:

- الوقت يمر.. وأنت لم تكتب شيئا..

ونظرت إلى ماكتبت، لم أستطع أن أميز شيئا، لا حرفا، ولا سطرا، ولا كلمة.. القماش الذى أكتب عليه يتداخل، وقلمى لا يستطيع أن يخط عليه الكلمات بوضوح، وقلت فى مرح:

- نغير الورق..

قالت:

- ليس هناك ورق، إبحث أنت عن ورق غير هذا الذى تكتب عليه.

وأبتسمت لنفسى فى ثقة، ثم قمت من مجلسى، فوقع مقعدى على الأرض فى دوى وانكسر، ولم أهتم - وأسرعت إلى باقى الممتحنين مثلى أسأل عن ورق..

كانوا جميعا يجلسون فى صفوف منتظمة، فوق مناضد منسقة وواضحة، والكل منهك فى الكتابة.. ونظرت إلى وجوههم، وخشيت أن أزعجهم فى أنغماسهم الكامل فى الإجابة.. وكدت أضحك.

السؤال الرئيسى أنا أعرف إجابته، بل لعلى الوحيد الذى يعرف كل الإجابة عنه، وكلهم يعرفون هذا تماما، وينظرون إلى فى ابتهال صامت، على أمل أن أملى عليهم الإجابة.. وكنت أريد هذا.. ولكن الوقت يمضى، وينبغى أولا أن أكتب إجابتى، ثم أعود إليهم، إن أرادوا معونتى.. هم فعلا منظمون فى جلستهم، كأنهم فى بنوار سينما، بل هم فى بنوار سينما بالفعل.. الأضواء مطفأة إلا من أنوار خافتة تسلط على شاشة بعيدة وراء ظهرى، وأصوات ترتفع ضاحكة وصاخبة، وموسيقى تصويرية.. ولكن صوتا ما وسط كل هذه الأصوات يملى عليهم الإجابة، وهم يكتبون الإجابة المملاة فى اهتمام ودقة..

وأحسست أن وقفتى أمامهم تحجب جزءا من الصورة على الشاشة.. تضايقهم وقفتى، ويضايقهم وقوفى نفسه.

وقال الدكتور محمود:

- خذ هذا الورق..

ورمى إلى بغرارة كبيرة، وعاد يكتب فى ورق إجابته من جديد.

وعجبت حين نظرت إليه وهو يتحدث، كان شاربه شديد البياض، شديد الكثافة، ومن هنا كان وجهه متغيرا بعض الشيء عن الوجه الذى أعرفه.. من أين أتى كل هذا البياض إلى شاربه؟ وتلاحظ أن حاجبيه أيضا أصبحا كثيفى الشعر والبياض معا - ماذا جرى له ليصبح هكذا.. وضحكت.. إنه السن.. أنت تنسى السن، تنسى أنه يكبر، وأنك تكبر، وأننا جميعا تظهر علينا علامات الكبر على مر السنين - ترى ما شكلك أنت؟ وكيف تبدو أمامه؟

هو لم يظهر أى دهشة حين نظر إليك، وحين تأملك فى سكون، ثم حين دفع إليك الغرارة المليئة بالقماش، وقال:

- هذا ورق كثير، أكتب فيه براحتك..

ثم جلس يكتب فى انهماك، وهو يتطلع إلى الصورة على الشاشة خلفك، وهو يستمع بصعوبة إلى الصوت الآتى من الشاشة، أنت مزعج، فوجودك يجعل وصول الصوت إليه صعبا إلى حد ما..

وانحنيت.. حتى لا أقف حائلا دون أشعة الضوء المنبعثة من مكان ما أمامى، لتنعكس على مكان ما خلفى، وقلت فى صوت هامس:

- شكرا يا محمود..

ولكن الدكتور محمود كان قد نسينى تماما، كان يجلس على مائدته، فى الصف الأمامى من البنوار يكتب فى إصرار وصمت..

وسحبت الغرارة، فهنا إنقاذى.. الورق... حتى أكتب من جديد ما أضاعته القماشة السخيفة التى أكتب عليها.. أنا أعرف الإجابة تماما، بل أعرفها كلها، وأعرفها كما لا يعرفها أحد من كل هؤلاء الجالسين.. السؤال عن الحضارة الإسلامية، والحضارة العربية، والعلاقة بين الاصطلاحين، وقد تعبت فى كثير من المقالات فى إثبات المعنى الذى يربط بينهما، ولى رأى واضح ومحدد فى هذا الموضوع.. صحيح فى السؤال منحنيات كثيرة، ومتعددة وغريبة، كأنها تضع كل العقبات أمام الممتحنين.. ولكنى أعرف تماما كيف أجيب على كل التساؤلات، وأنهى كل المشاكل، والقضية الآن، هى أن أسرع بالورق إلى مكانى، لأكتب الإجابة، قبل أن يضيع الوقت.. فالوقت يمر بسرعة.

وكنت أعرف فى داخلى أن الدكتور محمود سيرسل إلى الإجابة عن السؤال الثانى، فهو يعرف أننى لا أعرفه، وهو بالنسبة لى ليس شيئا مهما، فلا هو فى أختصاصى ولا أنا سأتابع المعرفة فى هذا الفرع على الإطلاق.. المسألة أنه سؤال فى أمتحان مفروض، ستأتينى بالقطع الإجابة فى كلمات.. وربما فى جمل، ولكنها ستأتينى فأنا فى هذا الموضوع فى جهل مطبق، ولن أعرف شيئا يفيد فى الإجابة عنه.. وكلهم يعرفون هذا، وستأتينى الإجابة فى ورقة صغيرة، وربما فى همسة، هذا كله لا يهم الآن.. المهم أن أعود إلى مكانى ومنضدتى وأجلس لأكتب الإجابة عن السؤال الأول.

وجررت الغرارة وأنا أنحنى، بعيدا عن البنوار، بعيدا عن مقاعدهم ومناضدهم المتلاصقة، ثم بدأت أفتحها، ينبغى أن أسرع، فلا وقت

هناك، كلهم يكتبون، وأنا على وحدى أن أفتح هذه الغرارة لأخرج بالورق وأبدأ فى الكتابة، فلابد من البدء فى الكتابة من جديد.

ومددت يدى أسحب الغرارة وأنا أنحنى، وكانت مغلقة، يلفها حبل عند فمها، وحاولت أن أفتح الحبل، والحبل لا يريد أن ينفتح، والدقائق تجرى، وزمن الامتحان يمضى فى سرعة.. ومددت أسنانى لأمزق فتحة الغرارة، ولكن أسنانى كانت غائبة، كل الفك الأسفل لا أسنان فيه، وأسنان الفك العلوى تنطبق على فراغ، وكل ضغط يوجعنى فى ضروسى الخلفية، فعندى ضرس أوشك أن يتخاذل وحده أو يقلع فى عنف - ولم أكن قد فرغت تماما من قرار حوله، هل أحاول أن أبقيه أطول وقت ممكن، فكل ضرس الآن يخلع لن يعود - أم أذهب إلى الطبيب لأنزعه وأستريح.. فى كل مرة آكل أغسله بعناية بالماء الساخن والصابون ثم بالماء الساخن ومحلول خاص يطهر اللثة والأسنان.. ولكننى دائما مهزوم، فهو يسبب لى من الأوجاع ما يجعلنى أخافه، وأرقبه فى حذر واحتراس..

ولم تنفتح الغرارة.. ومرت الدكتورة نادية، وسألت:

- أين أنت؟ لماذا أنت لست فى مكانك؟ أرجع إلى مكانك حتى لا تكون هناك شبهة غش.. أرجوك.. وكنت أضع لها دائما مكانا مميزا فى ذكرياتى.. نعم هى مجرد ذكريات، ولكنها ذكريات ثرية جميلة رائعة..

هذا نوع من الذكريات لا يمر ولا يعبر، أبدا لا يمر ويعبر ـ لأن كل شيء فيه حي، كان حيا وظل حيا، يثقل عليك، بالكلمات، والروائح، ونبض القلب الواجف بمعان حلوة لا تموت..

وقال في عنف، وهي تلف جسدها كله، وتمضي من أمامه:

ـ الزمن يمر، وموعد نهاية الامتحان يقترب..

ونسيتها، وأنقضضت على الغرارة بأسناني وأصابعي في جنون.. وأنا أنحني حتى لا يفوت أحد ما في الفيلم، وحتى يكتب المتراصون في اللوج أعني البنوار، أعني هذه الكتل المتراصة، مكاتب امتحانات ووراءها مقاعد، وفوق الكل وجوه، ووجوه، لم أعرف منها غير وجه الدكتور محمود الذي نسيني تماما، وأنهمك على الإجابة والكتابة والإصغاء..

وأخيرا، أخيرا جدا، انفتحت الغرارة، وانفرط عقدها، وتمزقت الورقة السميكة حولها، وخرج القماش، طويلا وسميكا، ورائحته غريبة.. وأخذت أجره بيدي، لونه داكن، في لون المانجو، لن يكتب عليه قلم، لن يخط عليه قلمي حرفا يبين ـ لن يصلح ـ هو لا يصلح، ورميت القماش من أمامي، وأخذت أجري..

لن ينفع هذا القماش في الكتابة، والوقت يمضي، ولابد أن أكتب على شيء ما إجابة السؤال، لابد أن أجوز الامتحان، لابد أن أكتب، نعم، لابد أن أكتب.

وعـدت إلى مكانى بسـرعـة وجلست إلى المنضـدة، وأنـحنى بى الكرسى ووقع.. وذعـرت.. كـيف يمكن أن أعـيـد الكرسى إلى مكانه، لابد أن يعود الكرسى إلى مكانه، لأجلس عليه، وأكتب فوق المنضدة، وحاولت من جديد، ولكن الكرسى يقع.. كلما عدلته فما اعتدل، ثم حاولت الجلوس عليه يقع.

ومرت الدكتورة نادية، وقالت:

ـ الوقت يمضى، وليستعد كل طالب ليسلم ورقة إجابته..

وذعـرت.. أى ورقة إجـابة هذه التى أسلمـها لهـا.. لملمت القمـاش الذى كنت أكتب عليه ورميته بسرعة، لم أكتب على كل حال إلا عدة سطور، ولم أقل فـيـها رأيى، بل رأيى فيـها حين كتبتـه جـاء مضطربا وسخيفا وغير منطقى، لن ينفع أبدا كـإجابة شافية على السؤال، ولا حتى كـمقدمـة واضحـة للإجابة على السؤال، لابد إذن من البـدء من جديد، ولكن أكتب على مـاذا..؟ لا شىء أمامى.. لا قمـاش، لابد من ورق، نعم.

ورق.. ورق.. وقلت لها:

ـ الورق..؟

هزت كتفيها، وقالت فى حزم:

ـ إبحث عن الورق عند زملائك..

وأهتز وسطها، ومضت..

أنا أعرف العطر الذى يفوح منها، يملؤنى ويغمرنى، ويثير فى كيانى أشياء مدفونة، ومجهولة ـ يارقة العطر ويارقة الجسد، وياعنفه وعرامته.. هس.. أنت فى امتحان، ولا معنى لكل هذا.. ولتعد إلى الواقع الآنى السخيف، المطلوب منك هو الورق.. الورق تكتب عليه الإجابة وبسرعة فالوقت يجرى، بل لعل الأمر أنه لا وقت هناك.. أجلس وأفرد المائدة أمامى، وأفرد الورق، هو قماش لست أدرى من أين جاء، أحاول الكتابة عليه من جديد، أستأنف ما كتبت، ولكنه يلتوى، والقلم لا يستطيع أن يخط عليه.. لا.. هذا لاينفع، سيمر الوقت وأنت لا تكتب شيئا فى إجابة هذا السؤال..

كل الإجابة أعرفها.

المسألة أننى أعرف الإجابة كلها، فقط أعطونى وقتا وورقا وقلما..

والورق لا يصلح، القماش لا ينفرد، والكلمات فوقه تتشابك، والجمل يركب بعضها بعضا، لابد من البحث عن ورق جديد.

ووقفت، فسقط الكرسى، وانضمت المائدة بعضها إلى بعض.. ولم أهتم، فقط أسرعت إلى الآخرين الجالسين للامتحان، وكانوا كتلة مصمتة كما تركتهم من قبل..

الضوء معتم، وثمة أصوات من الخلف، وهم جالسون، صفوفا صفوفا، يكتبون، مقدمات مناضد الامتحان واضحة، وهم يجلسون وراءها.

وقلت:

- أريد ورقا.

ولم يسمعنى أحد.

وعدت أقول بصوت أكثر علوا:

- ورقا، ورقا.. يا جماعة أريد ورقا..

ولم يتحرك أحد إلا الدكتور محمود، وكان مبتسما، وهادئا، كان يجيب على الأسئلة، وكان راضيا عن إجابته، وابتسم، ثم قال:

- الورق كثير - مكوم، مكوم - خذ..

ودفع إلى بأطراف صفراء عديدة، تلوح من فتحاتها أوراق بيضاء، وسعدت، وأسرعت المام الأظرف، بينما عاد هو إلى مجلسه وراء منضدة الامتحان، ونسينى تماما، كيف أظن أنه سيرسل إلى الإجابة عن السؤال الثانى، هو يعرف أننى لا أستطيع الإجابة عليه، وهو يعرف الإجابة الصحيحة، كلمة أو عدة كلمات - سيرسلها فى وقتها - لاشك عندى فى أنه يعرف أننى جاهل بالنسبة لهذا السؤال الثانى..

وعدت أتحسس القطعتين المعدنيتين فى أكياسهما الورقية، وأنا على أطمئنان إلى النتيجة، فليس هذا هو المشكل ، المشكل أن أجيب على السؤال الأول - والمشكل أن أقول كل ما أريد فى هذه الإجابة.. فما كتبته حتى الآن متعثر وقلق، ولا يقنع أحدا، ولا يشفى غليلا..

المهم أن أكون مقنعا، هذا شىء هام جدا، ولست أعرف أهناك وقت لأبدأ من جديد، أم أننى أستطيع أن أكمل الإجابة من حيث وقفت.

ووقف الدكتور محمود، ودس إلى بمجموعة من الأظرف الصفراء وهو يقول:

- لم ينفع ما أعطيته لك، لا.. إذن خذ هذا ورق آخر جديد، خذ.. خذ..

والأظرف كثيرة جدا - ولم يعد عليه أى حرج، فى مرتين دفع إلى بأظرف كثيرة صفراء.. وفتحت الأظرف فى سرعة، فالوقت عنصر هام جدا، لابد أن إخذ الورق، وأعود إلى مكانى، وأكتب منذ البداية، وأكمل الإجابة قبل أن ينتهى وقت الامتحان.

ومضيت فى عصبية أفتح الأظرف، لأخرج الورق، ولكن الورق مملوء كله، بإجابات امتحانات هندسية ورياضية، كل الأوراق ملآنة، كل ورقة بها مثلثات ومربعات، وأرقام كثيرة، وجداول - لا شىء ينفع، لا شىء أكتب عليه.. ظرفا وراء ظرف، أفتح، وأراجع وأعرف أنه لا جدوى هنا - كل الأظرف امتحانات سابقة، إجابات تحتاج إلى تصحيح، أوراق وأوراق، وأنا أمزق الأظرف، وهذه جريمة.. وأنا أعبث بمستقبل من كتبوا هذه الإجابات إن لم أعدها إلى أظرفها، وبسرعة..

ومضيت أجمع الأوراق، ألملمها فى أظرفها الصفراء، وألقى بها عند القاعدة التى جلس عليها الممتحنون، عند أطراف البنوار.. ولم يكن هناك وقت، فلأسرع.. وبعجلة شديدة جعلت أرمى الأظرف الصفراء، ألملم ما بها من ورق، وأجمعها فى حرص، ثم ألقى بها، ظرفا وراء

ظرف عند أقدام البنوار، فى عجلة ولهفة، فلابد أن أعود إلى مكانى لأكتب الإجابة على السؤال.

لا ورق ـ ولا شيء.. وأعود مسرعا إلى مكانى..

وقالت الدكتورة نادية:

ـ مضى معظم الوقت ولم يبق إلا أقله.

واهتزت وربت، ونظرت إلى عينى من وراء نظارتها السميكة، ثم ابتسمت وقالت:

ـ أسرع، مازال أمامك وقت.

وأسرعت، هرولت، جريت، وقعت، وأصطكت جبهتى بحاجز سميك، وأفقت..

صرت عند حافة البنوار الحديدى، وفى يدى لفافة أخرى، قال واحد ما أنها تصلح للكتابة، وأسرعت أجرى إلى منضدتى، أكتب الإجابة عن السؤال الذى أعرف الإجابة عنه.

كان الشارع ضيقا، ثم أخذ يتسع، ويتسع، ودخلت السيارة فى مسار سليم طبيعى، وأنحنينا لنتجنب نتوءا بارزا فى الجدار، وقال صديقى:

ـ أتعرف أين نحن؟

قلت:

نحن فى الحسين..

وضحك، ودار بسيارته، فإذا نحن بين عمارتين عظميتين، ثم منحنى، ثم باحة، ثم سرنا فى طريق طويل، وعاد يقول:

ـ أين نحن الآن؟

قلت:

ـ لا أعرف

ضحك وهو يقول:

ـ أنظر أمامك، فستعرف أين نحن.

ونظرت.. المسجد الحسينى تماما كما أعرفه، ثم انحنى المسجد وطال، وانحرفنا.. فاختفى.. وحارة أثر حارة، ثم نحن فى مكان غريب لم أعرفه من قبل، لا علاقة له أبدا بما أعرف من معالم الحسين، وضحك صديقى وهو يقول، والسيارة تجرى فى سرعة:

ـ نخرج الآن من باب النصر.

ولم أحس أننا نمرق من باب الفتوح، فجأة ظهرت حوائط وراءها القبور، حتى الجبانات أصبحت تلبس القفازات، ودار، ودرت، ودارت العربة العربة وقال:

ـ أتعرف هذا الطريق؟

وعادت جبهتى إلى رأسى، واستقرت عينى، وانتظمت أنفاسى من جديد وقلت:

ـ البغالة؟

وضحك، وضحكت فى بلاهة ـ فلا بغالة هناك ـ فقط الخوف أن نصطدم فى كل منحنى خطر، ثم انفرج كل شىء إلى طريق واسع، وهمس:

ـ شارع الحسينية..

ثم انطلق.. لا.. هذا بالفعل شىء خارق.

واندفع الموتوسيكل يدور فى الدائرة الخشبية العالية، يرتفع ويرتفع، ثم يعود ليهبط من جديد، بنفس السرعة، حتى يصل إلى القاعدة، وأنفاسنا معلقة، محبوسة، لاهثة ـ حتى يصل الراكب إلى القاعدة الثانية ونتنفس الصعداء، ويصيح واحد:

ـ انتهت الفرجة، الكل يخرج، وليدفع من يريد الرؤية من جديد.

وأنزل لاهث الأنفاس محمر الوجه أتحسس جسدى، وأعد أنفاسى وأطمئن أن كل شىء فى مكانه... ويقول صاحبى:

ـ طالت سهرتنا الليلة، سأنزلك عند البيت.

وتمضى السيارة مارقة فى سرعة، وأنا أجرى وألهث، أبحث عن منضدة الامتحان التى أجلس عليها لأكتب الإجابة على السؤال الأول.. ما هو بالضبط السؤال الأول؟

لا أعرف، إنه حول شىء ما أعرفه كل المعرفة، أين الورق، أين القلم، أجلس وأكتب..

ولكن المائدة تتقعر، لا تنفرج لأضع عليها الورق، كلما عدلتها من ناحية، انبعجت من ناحية، لابد أن تستقر المائدة لكى أكتب..

أتركها وأعدل المقعد.. والمقعد ينزلق، أهو مقعد من مقاعد البحر القماشيةَ.. ربما.. ولكن الجزء الخشبى فيه مكسور، كلما عدلته وقع، والجزء النسيجى منه لا ينفرد..

أترك المقعد بسرعة، فموعد انتهاء الامتحان يقترب، ولابد أن أكتب الإجابة، متأكد أنا أننى لو جلست على المقعد ووضعت الأوراق على المنضدة فأننى سأكتب الإجابة، والإجابة الصحيحة على السؤال.. ولكن المنضدة منبعجة، خشبها يتقوس فى داخلها، ولا مكان لوضع الورق، لابد من وضع الورق، لابد من الكتابة، الزمن يمضى، ولا شىء باق فى الزمن..

وأمد القلم إلى ورق معوج فوق مائدة معوجة، وأجلس فوق كرسى معوج، ولكن، لابد من الجلوس، لابد من الكتابة، لابد من الإجابة، أما السؤال الذى لا أعرفه، فستأتينى الإجابة عنه مع الصديق، أو مع غيره.. فقط أجلس، وأضع الورق على المائدة وأمد القلم إلى الورق وأكتب.

وأقع فلا كرسى هناك.. وأقف فى إصرار أمام المائدة، وأمد يدى فتنزلق فلا مائدة هناك، وأصر.. أصر.. أصر.. وأمد يدى إلى الورق، وينزلق القماش المتعرج، فلا ورق هناك.. وأكتب فى عنف، فأنا أعرف

الإجابة، ولابد أن أكتب ما عندى، آرائى، المعنى الذى أحبه.. والورق ينزلق، والقلم لا يكتب فلا حبر هناك. ثم أن سن القلم ينزلق ويتدلى فى همود.

ولا أكتب.

ولا أجلس، ولا منضدة، ولا ورق.

لا أحد أحضر لى الإجابة عن السؤال الذى لا أعرفه.

وأحاول أن أكتب ما أعرفه.

والورق قماش متداخل لا ينضبط

والقلم لا يخط شيئا، فهو لا يستقر على شىء.

والمائدة تنفتح ولا مائدة.

والكرسى وقع.

وأنا أختنق..

والوقت يسرع، والامتحان أوشك أن ينتهى موعده، وأنا أكتب كلاما فى فراغ، لا أجيب عن شىء، ولا أكتب على شىء، والوقت انتهى..

وقال صاحبى:

ـ وصلنا، هذا هو بيتك، أتحب أن أوصلك إلى مسكنك.

قلت:

ـ لأ، أعرف مكانى إلى مرقدى.

وأنا لم أكتب حرفا بعد، كل الذى كتبته لابد أن أمزقه، فأنا أعرف الموضوع جيدا، ولابد أن أجيب إجابة كاملة، السؤال واضح، وإجابتى واضحة، أجلس من جديد لأكتب ا لإجابة، والمقعد ـ منهار.. والمنضدة منهارة، والقماش مهترئ، والقلم لا يكتب، وأنا أكتب وأكتب وأكتب، وسأظل أكتب وأكتب وأكتب.. على أن أجيب على السؤال الأول الذى أعرفه..

كيف يا إلهى يتقوس القلم.

أتماسك، أمسك أصابعى حول حافة القلم، وأكتب..

كيف يا إلهى.. ينفرج الثوب، وهو قائم لن تبين عليه كلماتى، هو مظلم معتم لا يبقى على سطحه شيء مهما كتب القلم

أجلس لأكتب.. فأقع.

المكتب مقوس منهار.. ألملم نفسى ـ وأجلس ـ فأقع.

المقعد منهار.. لا قاعدة له ـ لا شيء فوق قوائمه.. وأجلس فأقع.

يا محمود، أين إجابة السؤال الثانى؟

وأنا أنهك نفسى فى الإجابة على السؤال الأول ـ لا ـ ليس هناك أحد ـ لن يجيبك محمود على السؤال الثانى أساسا..

ووقف صديقى، وقال:

ـ تعبت من طول التجوال، أنزل هنا الآن.

وتحسست مكانى إلى حيث أكون..

وقال الدكتور محمود:

- هذا كل الورق.

وقالت الدكتورة نادية:

- انتهى الوقت.. كل أوراق الإجابة تسلم هنا.

والورقة لا تصلح لشيء، وأنا. لا لست أنا..

لا.، لا إجابة هناك.. لا .. ضعت.. وسقطت فى الامتحان.

وقال صاحبى:

- أدخل منزلك، أطمئن عليك.

والنور، ثم الممر الطويل، ثم النور، ثم الباب، ثم أننى تعبت وأريد أن أنام، ثم كل شيء لا معنى له، بل كله معنى.. والامتحان انتهى قبل أن أجيب، والوقت يمر.. الأظرف.. والأظرف مليئة بالورق المكتوب، والأظرف كثيفة وكثيرة، وأنا أحاول أن أفتح الأظرف، والأظرف كثيرة، كثيرة.. وهى تلفنى، وتحوطنى، تحتوينى.

وأفتح اللفافة هذا ورق.. ورق.. بل هو قماش عريض، داكن اللون، يلتف حولى ويلتف.. وكلما حاولت أن أكتب يترنح القلم.. ويترنح القماش.. وأترنح أنا.. ثم أترنح..

وأحس أن وقت الامتحان يتعقبنى.. وأننى أتعثر.. ولا أحد أعطانى السؤال الثانى، فأنا لا أعرف شيئا عنه.. الأفكار تنهال على رأسى، تمر أمام عينى، الإجابة المفضلة الواضحة عن السؤال، كل شيء واضح ومرتب ومنطقى، ولكنه لا ينتهى..

وأحاول أن أرفع القلم، والقلم لا يرتفع فى يدى

وأحاول أن أستيقظ.

فأنا أختنق. ولا أكتب، فقط أختنق..

لابد أن أخرج من كل هذا، لابد أن أستيقظ لابد أن أكتب، لابد.. نعم لابد.

دره مشوى

دمعت عيناه إذ ملأها الدخان المتصاعد من الفحم، هز المروحة الريش فى يده هرة عنيفة فوق الفحم وهو يعدل كوز الذرة، ويقلبه على وجهه الآخر.. توهج الفحم وطقطق، وتصاعد منه دخان كثير، وانطلقت شرارة اخطأته بصعوبة.

حرك كوز الذرة ليستقر فوق الفحم المنطفئ فى نهاية الصفحة الصفيحية، ووضع المروحة تحت ابطه ومضى يدعك عينيه بكفيه معا.

وجاءه صوت محفوظ يقف على الناحية الأخرى البعيدة من الشارع على نصبة دره كنصبته هذه تماما وهو يصيح به: - يا سرحان ، خد بالك. اللى قدامك نار مش لعب.. الكوز يتحرق لو عليت عليه النار.. يا سرحان بطل سرحان يا سرحان.

ويضحك ساخرا، وهو يحرك يده بخفه ليحرك فوق الجمرات التى تحيط بكوز الذرة الذى يشويه أمامه. ابعد كفيه عن عينيه، وقد هدأ

الدخان المتصاعد من الصفيحة أمامه.. ومد يده يعيد الذرة إلى قرب النار.. وهز رأسه فى حيرة، فلو وضع الكوز على النار وتوهجت النار، استوى الكوز واحترقت أجزاء منه. ولا يلوح فى الشارع اى مشتر.. الناس يمرون ولا ينظرون، فقط يقفون عند سمير بائع العصير، أو عند عبدالصمد الفطاطرى، أو عند زكى صاحب البقالة. أما هو واخوه محفوظ فلا أحد منذ وقفا فى عصر اليوم، يقترب منهما أو يطلب كوزا أو كوزين. كما يحدث فى أيام الجمعة والأحد، ولكن اليوم يوم ميت واحد من أيام وسط الأسبوع الذى لا يخرج فيه أحد إلى النزهة.. وإنما كل من فى الشارع يعرف إلى أين يقصد، وماذا يريد - وكم حاول أن يقنع محفوظ أن يبحثا لهما عن مصدر رزق آخر فى مثل هذه الأيام غير حكاية الذرة هذه، ولكن محفوظ - وهو الأكبر - كان يضحك ضحكته الساخرة دائما، ويقول:

- لو تركنا مكاننا يا سرحان، سيجد المعلم عبدالحفيظ من يحتله غيرنا، وساعتها، وقعتنا هباب، لا منه، ولكن من امنا يا سرحان، المال مالها، ولابد أن يظل فى أيدى أولادها، وهى تعرف أنه يحاول أن يجد الفرصة ليستأثر بكل شئ، وحين يزيحنا من على النواصى، لأننا نتمرد على الرزق، لن نستطيع أن تجد ساعتها لا مكانا يأوينا، ولا هدمة تسترنا، ولا لقمة نتفوت بها، لا يا سرحان، نقف ونصمد، ورزق الله واسع، وربك كريم.

تنهد سرحان، ومضى يخرج كوزاً آخر من الزكيبة إلى جواره، وعينيه على الكوز الذى ينضج تدريجيا على نار الفحم الهادئة، ويقشر الكور،

يزيل من حوله اللحاء الأخضر، ثم اللباب الأبيض، ويضع الجميع إلى جواره فى رفق فسيحتاج إليها كلها عندما ينضج الكوز لتضمه وسطها ليحتفظ بدفئه حتى يجئ الزبون.

صدق محفوظ فى كل كلامه ـ فالمعلم عبدالحفيظ يبذل كل ما لديه من خبث وقوه ،ليصرفهما معا عن مكانيهما عند الناصتيتين، وهما معا لا تحظيان بالزبائن الدائمين، فهو يحتل وسط الميدان يقف فيه بشوايه حديدية كبيرة، وكمية عظيمة من الفحم والدرة، وأكثر من مروحة تعينه على سرعة تشوية الدرة ـ وهو وحده يحتكر أهم مكان للبيع، وهو وحده يعرفه الزبائن الدائمون، يقصدونه دون غيره، فبافعل هو ينتقى لنفسه أضخم اكواز الدرة، وأحفلها بالحبات السمينة والكبيرة، والشوايه الكبيرة تساعده أن يقدم الجانب الوردى من الذرة المشوية، لا الجانب المحروق والأسود الذى لا تنتج شواياتهما الصفيحية غيره ـ وهو الذى يفرض عليهما أن يدفع كل منهما خمسة قروش كاملة، فى كل كوز يبيعونه له، كفرده ليسمح لهما بالوقوف بالدره فى مكانيهما.. المال مالهما، والدرة ورثهم هم، محصول ورثوه بعد أن مات أبيهم، ويرسله أعمامهم إليهم كل موسم ـ كما يرسلون محصول الفول كل عام ـ هو فرض وجوده على كل شىء، وعلى وقفتهم هذه من العصر وحتى آخر الليل يشوون الذرة ولا زبائن ... فإن جاء الزبائن فله فى كل كوز خمسة قروش، فلا يبقى من ثمنه سوى عشرين قرشا، تأخذ أمهم عشرة ثمن الكيزان، ولا يبقى لكل منهما سوى عشرة قروش، يدفعون نصفها آخر الأمر صاغرين مقابل المأوى والطعام، الذى لا يأكلون منه سوى

وجبه الافطار ـ زمان قبل أن يظهر فى حياتهم المعلم عبدالحفيظ، كانوا يعيشون فى انطلاق كامل وسعاده حقيقية، وهو كان الأصغر ـ ومحفوظ وعايدة ـ وكانت الأكبر ـ والأحلى والأجمل. كنا كلنا نحب عايدة .. فمنذ تفتحت أعيننا على الدنيا وهى التى تطعمنا وتحمينا، وتغسل ملابسنا، وتضمنا الى صدرها ان أرقنا غياب أمنا، وأحسسنا بالحاجة إلى ضمة دفء وحنان ـ كانت أمهم تخرج إلى الأسواق، من سوق إلى سوق، هذا سوق الثلاثاء، وهذا سوق الجمعة، وهذا سوق الاتنين، كل سوق فى مكان، يبعد تماما عن السوق الآخر، ولكنها تخرج فى الصباح محملة بالجبن والبيض والزبدة، والبط والدجاج والحمام، والمش، والعيش الفلاحى، والشعرية البلدى ـ وكل شىء تم صنعه من نتاج القراريط التى ورثتها عن زوجها، بعد أن مات ـ ولا تعود فى ليال كثيرة إلا فى الصباح مجهدة، متعبة معناة ولكنها حين كانت تعود كانت تشع البهجة والحب والحياة ـ تحمل اليه قرص الطعمية المستديرة والحلاوة الطحينية، والزيتون، والجبن الرومى ـ ويوم يأتى الجبن الرومى تكون فرحة العيد بالنسبة للكل، فالجبنة الرومى تعنى العيش الفينو، ولو رغيفين يتقاسمونهما جميعا، فلا يؤكل الجبن الرومى إلا مع العيش الفينو ـ وضحك وهو يتذكر أن عايدة كانت تغمس العيش الفينو بالعيش الفينو، وتقول صارخة:

ـ ما أحلى عيش البندر يا أولاد، عيش وغموس

وضحك سرحان، ونسى نفسه حتى مست المروحة الفحم المشتعل، فشاطت وشم رائحتها، فأفاق، وسحب المروحة من وسط النار ومضى

يطفئها باصابعه ويده فى عصبية وانفعال، وقد عادت الدموع تملأ عينيه من جديد، إثر تصاعد رائحة الريش المحترق إلى أنفه.

ولكنه افاق تماما حين سمع فرملة السيارة إلى جواره، كانت سياره فارهة وانيقة، وأنزلت سائقتها الحاجز الزجاجى وهى تصيح به:

- يا أنت، هل عندك ذرة؟

كاد يضحك، ولكنه تماسك، منذ الصباح ولا شئ عنده سوى الذرة، يضعها فى الأشولة، ويحمل نصبته الى هذه الناصية، ومنذ العصر، وهو يقف هنا فى هذا المكان يحافظ على الفحمات المشتعلة لا تنطفئ، ويضع كوز ذرة ، واحدا إثر الآخر أمام النار بخفه بحيث لا يحترق، ويحمله إلى الجانب البارد من الصاج يلفه فى لحائه الأبيض ثم لحائه الأخضر - ويتركه حتى يأتى الزبون.

وعادت تقول وهى تضرب كلاكس العربة:

- تعال، ألا تسمعنى، هل عندك ذرة؟

اسرع يهرول نحو نافذة العربة، وهو يحاول أن يقول لها أن الذرة عنده، وان مهنته الآن هى أن يشوى الذرة - ولكنه لم يفتح فمه بكلمة، فمن ركن داخل العربة انبعث نباح شرس، جعله يجفل ويبتعد، ضحكت وقالت:

- لماذا تخاف، هو كلب لطيف، هل تخاف من كلب لطيف؟

واقترب فى حذر وقلبه يخفق فى عنف، كان يريد أن يجرى من الكلب، ان يهرب من هذا النباح المخيف، لولا أنه أحس فى صوتها بشيء جعله يعود ويقترب - وجاءه صوتها الرقيق الحانى وهو يقول:

- لماذا أنت خائف، أنت لطيف جدا، وتشوى الذرة - بكم الكوز يا،، بماذا اناديك با معلم - وضحكت ثم قالت - يا معلم يا صغير، تمام - بكم الكوز؟

تلعثم، وتعثر الكلام فى حلقه، ولكنه استجمع شجاعته، واقترب اكثر من السيارة ولم ينبح الكلب، وقال:

- تلاتين قرش يا هانم.

ضحكت ساخره وهى تقول:

- تغش يا معلم يا صغير لا ربع جنيه فقط، كلهم يبيعونه بربه جنيه فقط.

وكاد يحدثها عن زواج أمه وفردتها الخمسة قروش التى يفرضها على كل كوز ذرة، وعن الظلم الواقع عليه وعلى أخيه فى هذه الفردة الباهظة، ولكنه لم يجد فى نفسه ما يشجعه على أن يشاركها معاناته، ما لها هى، هى مجرد زبونه، تريد الثمن الحقيقى لما تأخذ، اطرق برأسه، وقال:

- امرك يا ست هانم، كم كوزا

وكانت إجابتها هى المفاجأة الكبرى له فى حياته إذ ضحكت وقالت:

- كم كوزا؟ ما اسمك يا معلم يا صغير

همس على استحياء

- سرحان يا ست هانم، امرك يا ست هانم آنتى قلتى خمسة وعشرين ، يبقى وبع جنيه، والعوض على الله يا هانم.

ضحكت في سخرية، ونبح الكلب داخل العربة، واجفل سرحان متراجعا ـ ولكنها قالت:

ـ كلام رجالة يا سرحان؟

ابتسم لابتسامتها وقال:

ـ كلام رجالة يا ست هانم

ـ اذن عشرين كوزا يا سرحان

جحظت عينا سرحان، ولم يتمالك نفسه أن هتف

ـ عشرين كوزا مرة واحدة، يا سيدى المرسى يا ابو العباس

عادت وتضحك وهى تقول:

ـ إحسبها يا سرحان.

واطرق سرحان، وأخذ يعد على أصابعه، ثم هز رأسه، وعاد يطرق من جديد ـ ويعد على أصابعه ويتمتم فى قلق وعصبية، ثم رفع رأسه وقال:

ـ خمسة جنى يا ست هانم.

ضحكت وهى تقول:

ـ تنتهى منها جميعا بعد كم ساعة

صاح وهو يحس بنشوة فى أعضائه، فخمسة جنيهات فى ليلة واحدة شيء لا يحدث الا للمعلم نفسه:

ـ نصف ساعة يا ست هانم ـ نعم نصف ساعة

ضحكت وهى تعطيه جنيهين وتقول:

ـ خذ هذا عربونا، واياك ان تشوى لآخرين أى كوز حتى تنتهى من العشرين.. وسأعود بعد ساعة يا سرحان، ساعة كاملة.. ودار موتور السيارة، والتفت السيارة حوله وهو يقف فى وقفته الذاهلة يحمل الجنيهين فى يده، ثم مضت مسرعة.

ووقف للحظات ذا هلا، ثم مضى يجرى ملوحا بالجنيهين فى يده نحو نصبة محفوظ وهو يصرخ:

ـ عشرين كوز يا ولد، عشرين كوز با ولد

والتفت اليه محفوظ وقد كفت يده عن الحركة بالمروحة أمام الكوز اليتيم الاعجف على الصاجة المحملة بالفحم المشتعل، وقال:

ـ تخرف أنت يا سرحان، سرحت مرة أخرى، فلم تفهم ما يقال؟

صاح سرحان وهو يقترب منه ملوحا بالجنيهين فى يده:

ـ لا.. هذه حقيقة، حقيقه، والجنيهان، انظر إليهما، هما حقيقة، حقيقة.

اندفع محفوظ ليلقاه فى وسط المسافة بينهما، ونظر فى دهشة إلى الجنيهين، يرتجان فى يده، وقال:

ـ هو صحيح يا محفوظ، هو صحيح،

واطرق محفوظ وهو يقول:

ـ ولكن، أنا المعلم أعطانى عشرة أكواز، وأنت عشرة. وأنا بعت كوزين يا سرحان فكيف تكمل العشرين؟ توقف حماس سرحان، وتأمل فى كلام اخيه وهمس:

ـ وانا بعت كوزا واحدا أيضا

قال محفوظ:

ـ لن تكمل العشرين إلا إذا طلبنا من المعلم ـ وساعتها سيسأل المعلم، لماذا؟ كيف...؟ نعم كيف تجيب على تساؤلات المعلم يا سرحان؟ وخاصة والمعلم عبدالحفيظ، لا تفوته فائته، وسيعرف أننا بعنا أكثر مما اعطانا ويعطينا كل ليلة ـ وساعتها سيسأل ويعرف أننا بعنا عشرين كوزا فى ليلة، وسيطلب نصيبه ولن تهرب أبدا من إعطائه هذا النصيب.

ـ نصيبه محفوظ، ولكن الخوف من طعمه فى نصيب أعلى.. فهو لن يرضى ابدا بأن يزداد رزقنا الليله عن رزقنا المعتاد كل ليلة.

وفجأة وقبل أن يتحرك أى واحد منهما، عادت العربة مسرعة، ووقفت أمام سرحان، وصاح صوت السيدة الرقيق:

ـ يا سرحان، غيرت رأيى

وطب قلب سرحان، وجف ريقه، واسرع يجزى إلى جوار نافذة العربة، ونباح الكلب يخيفه ولكن زجاج العربه يحميه.

وعادت تقول وهى تفتح زجاج نافذة العربه

ـ يا سرحان، غيرت رأيى ـ الفكرة اعجبت عائلات جديدة، فعددنا بهذا سبع عائلات، فى متوسط اربع كيزان لكل عائله يعنى ثمان وعشرون كوزا، يعنى تلاتين كوزا ـ ما قولك؟

صاح سرحان فى انفعال:

- ثلاثين كوزا، برقبتنا يا مدام

ضحكت وقالت:

- هل ازيد العربون؟

صاح وهو يلهث ، ولا يعرف سر الهزة التى ملأت جسده كله مرة واحدة؟

- لا يا هانم العربون كفاية.

ضحكت وهى تخاطبه من باب العربة المفتوح الزجاج ، وقالت:

- عجبت الفكرة عدة زسر اخرى فى القرية السياحية وحسبناها، ونحن نحتاج إلى هذه الثلاثين كوزا، وسأحضر بعد ساعة مثلا

صاح:

- لا يا مدام ساعتين، فليس إلا انا واخى محفوظ - سنحتاج ساعتين

عادت تضحك وتقول:

- ساعة وآتى أنا ومدام عايده، والبنت هدى تساعدك - ان لم تكن قد انتهيت من شئ ما تريد - ماذا تقول؟

ولم يكن يعرف ما يقول - كان فرحانا بطريقة لم يعرفها من قبل، مجرد الاحساس بأنه يستطيع أن ينتصر، ان يؤكد وجوده وذاته أمام المعلم عبدالحفيظ، كان هذا يكفيه - فقال:

ـ وما له يا هانم

واختفت العربة من أمامه أن يفيق من ذهوله وسمع سمير صاحب محل العصير يقول، وقد خرج من وراء النصبة فى محله الغارق فى ضوء مبهر تنبعث من لمباته العديدة التى تضىء المحل ليلا ونهارا:

ـ شد حيلك يا سرحان، الليلة فل

ضحك سرحان وهو يقول لمحفوظ:

ـ يعمل المعلم ما يريد، أنا ذاهب لأشترى الكيزان المطلوبة، وابدأ انت فى شىء ما عندك حتى أعود .. قال زكى البقال وهو يخرج من محله:

ـ اذهب يا سرحان، أنا سأقف على الشواية اشوى ما اقدر عليه حتى تعود

صاح سرحان فى دهشة:

ـ والمحل؟

ضحك زكى البقال وهو يقول:

ـ الرزق على الله يا سرحان، الزبائن على العين والراس، ولن يمنعنى الوقوف أمام الشواية من تلبية طلباتهم.. توكل على الله

وصاح عبدالصمد الفطاطرى، وهو يلف عجينة الفطيرة المدورة بين كفيه، ويضعها بفن فوق الرخامة أمامه، ثم يرشها بالسمن:

ـ جيرانك يحبونك يا سرحان، وخذ من خشب الفرن عندى ما يساعدك على إيقاظ النار فى فحمك كلما خمدت ناره لم ينتظر سرحان ليسمع أكثر من هذا، بل ترك المروحة لزكى البقال وأسرع يجرى، من شارع السوق ـ وصوت السيدة صاحبة السيارة يملأ سمعه وضحكتها تنور أمام وجهه، وحكاية الثلاثين كوزا مرة واحدة وفى ليلة واحدة ومن زبون واحد تجعله يبتسم لنفسه، ثم يضحك ويصفق، وهو يتحول من المشى إلى الجرى السريع ـ كم يود أن يسرع ليخبر عايدة .. ويسعد بصوت ضحكتها تجلجل فرحة، ويسعد برؤية النور يملأ وجهها الجميل ـ هو يعرف أن سعادتها ستفوق سعادته وسعادة محفوظ، بل وسعادة أمه ايضا . ولكن هل تسعد أمه حقا لوعرفت بما نالهم من حظ جميل هذا اليوم؟

احس بشيء من المرارة تعتصر قلبه وهو يكاد يشك فى أنها لن تسعد أو تفرح إذا كان هذا سيغضب المعلم عبدالحفيظ زوجها.

هز رأسه كأنما ليبعد هذه الأفكار المرة عن ذهنه، وهو ينحنى على الطريق ويدخل شارع السوق بأنواره المتلالئة، وضجة الحياة فيه، وفجأة توقف وغاصت الفرحة فى قلبه، فقرب العربة التى تحمل للسوق الذرة التى ترسل بها أمه إلى تاجر الجملة عم رسلان العجوز كان البرنس يقف بجسده الضخم، ووجهه المدور والنور سلط على شعره الاسود الكث، وجبهته العتيقة، والنظرة الشريرة الوقحة فى عينيه. وسمع ضحكته الساخرة تحرق المسافة بينهما هو عند الناصية والبرنس عند دكان عم رسلان العجور.

كان البرنس هو ابن اخت المعلم عبدالحفيظ زوج أمه، وصورة الشيطان الدائم أمامه.

تردد، وكاد يعود أدراجه، لولا أن تذكر الثلاثين كوزا، والسيدة صاحبة السيارة، ونباح الكلب يخيفه، ويحميه منه أنه داخل السيارة، وان السيدة تحكمه وتمنع آذاه أن يطوله ـ ولكن البرنس يقف وسط الشارع وعيناه تلمعان بشيء كالجوع، وضحكته الساخرة تعنى أنه ينتوى شرا، وليس هناك من يمنعه او يرد أذاه.

البرنس يكرهه هو ومحفوظ، ولكنه يحب عايدة حبا وقحا مستفزا، يضايق عايدة نفسها، ولكنه يستفزه ويستفز محفوظ أيضا، فيتصديان له، رغم خوفهما منه.. وجاءت الليلة الفاضلة حين عاد ومعه محفوظ إلى البيت، فإذا عايدة تصرخ فى هيسترية وهى تلوح بيديها فى عنف وأمامها يقف البرنس فى وقاحة وهو يقول:

ـ لن أخرج، هذا بيت خالى، لا أحد يطردنى من بيت خالى.. ابدا.. مفهوم ـ أنا البرنس ـ وكان البرنس يفرض نفسه على كل الناس، ويجنى الاتوات من الافراح والمآتم معا، فإن لم تدفع له الإتاوة، جاء هوو (الشلة) فدمروا كل شيء ، وحطموا كل شيء.. ثم يمضون ضاحكين ساخرين تحميهم سطوة المعلم عبدالحفيظ وصلاته برجال السطوة فى الحى واعضاء الحزب، ورئيس الحى، ورجال الحراسة، وكل من له قيمة بدءا من عم رسلان العجور تاجر الجملة فى الخضروات والفواكه والحبوب، وكل صلاته المتشابكة فى السوق كله، يتحكم فيه، وفى كل ما يتم فيه من معاملات، وهو رغم السنين التى تثقله، اكثر حيويه

وخبثا من كل من فى السوق من تجار ومتعاملين، إلى وشيخ المسجد وعلاقاته الوطيدة بكل الملتحين ملاك الأرض والمساكن ومحلات الجزارة والدجاج والبقالة، وبكل المحجبات والمثقبات صاحبات العمارات التى أخذت أماكنها فى مواجهة البحر ويؤجرونها كل عام للمصطافين من أعضاء النقابات والجمعيات التعاونية المرتبطة تماما باصحاب اللحى، وإلى شيخ المسجد هو صمام الأمان فى الحى، يخطب فى الهجوم على كل ما يمسهم، ويدافع فى مجلسه بعد العشاء عن صحة ما يقولون ويفعلون.

واين يذهب سرحان ومحفوظ، وعايدة، وأمهم، أمام كل ما يقف وراء البرنس الذى كان اليد الضاربة - هو وشلته - التى تؤدب كل من يخرج على ما يقوله ويريده عم رسلان أو شيخ المسجد وأصحاب العلاقات الوطيدة به.

وكان سرحان يردد بصره بين جسد البرنس الضخم المنتصب امامه، وبين عربة الذرة، وبين مخزن المعلم سرحان، والمئذنة التى ترتفع فوق المسجد قبالته، وهو يحس بالخوف الغريزى الذى رباه فيه المعلم عبدالحفيظ، وربته ه وقاحات البرنس المتكررة والدائمة.

إلا فى هذا اليوم، دخل مندفعا وأخته عايدة تصرخ فهجم على البرنس دون خوف يريد أن يخرجه من المنزل، وان يبعده عن وجودهم كله، ولم يحس إلا أنه يختنق، كان البرنس قد مد يده إلى رقبته فقبض عليها فى عنف، ثم رفعه عن الأرض وهو يضحك فى سخرية، فها هو معلق فى الهواء بيد واحدة من البرنس الساخر الهازئ الذى يصرخ:

- هذا بيت خالى، أنا حر.. ادخل فيه وقت ما أشاء، وافعل به ما أريد

وصرخ محفوظ واندفع نحو البرنس، وهو يضرب بيديه ورجليه فى عنف كل ما يطوله من جسد البرنس العملاق - وضربه البرنس بيده الطليقة فسقط فى آخر الحجرة، وارتفع صراخ عايدة - ودخلت أمهم وسط هذا كله - ودخل وراءها المعلم عبدالحفيظ شاحب الوجه لأول مرة - كان معلقا فى الهواء بقبضة البرنس القوية، وانفاسه مختنقة ، والرعب يملأ قلبه، ولكنه لا ينسى أبدا وجه عبدالحفيظ الشاحب المصفر والمكفهر.

ولكن أمه اندفعت تحتضن محفوظا وتصرخ:

- اترك ابنى .. اترك ابنى

وعايده تولول وتصبح وهى تندفع نحوه لتمسك برسغ البرنس وهى تصرخ:

- اترك سرحان يا مجرم، اترك سرحان يا مجرم

والدنيا تغيم به، وتدور رأسه فى دوامة ويسمع من بعيد صوت أمه تصرخ:

- لا .. هذا يكفى، هؤلاء أولادى،أنا لا أريدك يا عبدالحفيظ، خذ ابن اختك واتركنا فى حالنا

لا .. لا مكان لك فى بيتنا - لا - زادت المسألة حتى فاقت الحد، خذ ابن أختك وأخرج واترك لى أولادى.. اترك لى أولادى

وازداد شحوب وجه عبدالحفيظ، خففت قبضة البرنس من اطباقها على عنق سرحان، وأحس الهواء يعود إلى رئتيه فى حذرو وكان جسده كله يرتعش وهو معلق فى يد هذا الوحش، لا تصل أقدامه إلى الأرض وعادات أمه تصيح:

ـ يا عبدالحفيظ، نحن نعيش من خير الأولاد، ولو حدث لأحدهم شيء لامتنع أعمامهم عن ارسال المحصول، فهى ارض أبيهم، لا أرضى ولا أرضك، وأعمامهم يحبونهم حبا أنت لا تعرفة، لو حدث لاحدهم شيء بسببك أو بسبب ابن أختك هذا، فلن تكفيهم أنت ولا ابن أختك، ولا أهلك كلهم ـ هم صعايدة يا عبدالحفيظ، اتفهم، هم صعايده ـ واى شيء يمس عايدة دواؤه عندهم عيار من بندقية ميزر. لا يعيش بعده البرنس أو من هو أقوى من البرنس.

وازداد ارتخاء قبضة البرنس على عنق سرحان حتى احس بقدميه تلمسان الأرض.. واحس بآهه عريضة، تخرج من صدره، ونظر فى عينى البرنس، كان مايزال يقبض على رقبته ولكن قبضته كانت مرتخية، وكان فى العينين معنى الحيرة والمفاجأة والدهشة، بل والخوف ـ نعم الخوف يا سرحان.. لم يكن يريد خيرا بعايدة، وايقظته كلمات أمك على المصير الذى كان ينتظره لو استمر فى صلفه وتجبره ـ والخوف خوف، فى عينيه، كالخوف فى قلبك منه، ووكالخوف فى قلب محفوظ منه أيضا، ولكنهما لم يهاباه وهاجماه رغم جسده العملاق، ووجهه المجدور، وصخبه المخيف.

جاء صوت المعلم عبالحفيظ متخاذ لا وهو يقول:

ـ ابعد إيدك عن سرحان يا برنس

صاحت أم سرحان وهى مستمرة فى ثورتها:

ـ يبعد إيده عن رقبة سرحان، ويبعد غلاسته عن عايدة، ويبعد روحه عن البيت كله.. من اليوم البيت كله محرم عليه

صاح البرنس فى غضب:

ـ لا أحد يكلم البرنس هذا الكلام أبدا.. لا أنا أكسر عظم كل من يصرخ فى البرنس

صاح به أبوه:

ـ اسكت يا برنس، المعلمة غضبانه الآن، ولها حق. انت اخفت البنت وضربت الولد الكبير، وكدت تخنق سرحان

صاح البرنس وهو يزيح سرحان بيده فيقع فى الأرض متكوما:

ـ وافعل ما أشاء ولا أحد يمنعنى.. أنا البرنس.. من يجرؤ على منع البرنس

قالت أمه فى هدوء

ـ قلت لك يا برنس، وقلت لخالك.. البنت اعمامها يصونون عرضها بالدم.. ومن الغد أخذ البنت والاولاد وأعود الى الصعيد نعيش هناك على قراريطى التلاته. وهى تكفينا أنا وهم، ولن يجرؤ أحد يكرههم أن يدخل البلد الا مقطوع الرأس، أو ممزق القلب برصاص البنادق.

صاح البرنس

ـ ما هذا الكلام؟

صاح به المعلم عبدالحفيظ:

ـ افهم الكلام يا برنس ـ أنا أعرف ان هذا كله صحيح، ولست وحدى الذى أعرفه، بل يعرفه المعلم رسلان وشيخ المسجد والكل: عندما يصل أعمام الأولاد إلى السوق، والكل يلزم مكانه، والكل يعرف قدره ثم التفت إلى أمه وقال:

ـ يا معلمة، بيتك مصان من الآن ولن يدخله البرنس إلا بعد إذنك، وسنمضى الآن إلى السوق، تعال معى يا برنس

وقف البرنس متصلبا، ووجهه المجدور يزداد قبحا، وعضلاته تزداد تقلصا، ووقفته تزداد تصلبا.. وقال المعلم عبدالحفيظ:

ـ يا برنس، لو سافروا لجعنا، نحن نعيش على الذرة التى تأتى من البلد، وعلى الذرة التى يعطيها لنا أعمام الأولاد حين يهزون السوق وهم يجيئون من البلد، بكل خيرات أرضهم يملأون بها السوق ويحتكرون السوق، إن كان للأولاد ثلاثة قراريط، فلهم فى أرض أعمامهم الأفدنة، والأفدنة، والمحصول، من يرضون عنهم منا يعرف الثراء، ومن يحجبون محصولاتهم عنه يعرف معنى الضياع والفقر، افهمت هيا بنا ـ ننصرف الآن، والزمان يفعل فعله، وينسى المعلمة وأولادها غلطتك

اطرق البرنس برأسه الشامخة، وهز كتفيه العريضتين وقال:

ـ كل هذا لأنى ضربت الأولاد

صاحت أمه:

ـ كل هذا لأنك أهنت عايدة وخنقت سرحان، هل سرحان ندلك يا عريض الكتفين يا أجدر الوجه ـ سرحان الصغير الملاك، يا شيطان.

وخرجا. وضمته أمه إلى صدرها وبكت.. ومن يومها، والبرنس ينظر إليه بكراهية مخيفة، شبيهة بهذه الكراهية التى تبدو فى عينيه الآن، والضوء مسلط على شعره الكث وعينيه الضيقتين، ووجهه المجدور، ووقفته المتصلبة وسط الشارع، يقف بينه وبين العربات المحملة بالذرة أمام محل المعلم رسلان أو عم رسلان العجوز كما كان الكل يسمونه، هل يتراجع، هل يهرب، وملأ سمعه نباح الكلب، وراء زجاج السيارة المغلق ـ حتى الكلب يا سرحان ينبح حين يرفض، وهو رفضك، فنبح عليك، ولو طالك لمزقك.. انت وحدك لا تريد ان تنبح ـ لا يا سرحان لا ـ إنك حين جد الجد، وقفت كالسبع ولم تخف من المعلم عبدالحفيظ، ولم تبق عليه فألزمته مكانه، ولم تخف من البرنس، ولا من عضلات البرنس، فأعدته إلى حجمه مجرد مدع مغرور، يعيش عالة على أموال الآخرين، فان حجبوا مالهم، عوى كالكلب ـ وقف امامهم، ولحس بلسانه اقدامهم ـ اتذكر الكلب فى العربة الفارهة ـ لا يا سرحان لسنا كلابا ، ولن نحبس أبدا داخل عربة فارهة لن نخاف.. ولن نتراجع

وفى خطوات هادئة، تقدم سرحان نحو البرنس ونحو المعلم رسلان واقترب من البرنس، فى وقفته الشامخة المتعالية، ونظرته الساخرة المتحدية

أيريد أن يخيفك يا ولد؟ ـ لا لن تخاف، الكلب المحبوس لم يستطع أن يخيفك، وهذا الكلب محبوس فى خوفه من أعمامك، ومن ضياع ايراد قراريط أمك، لن يخيفك

وتقدم سرحان فى سرعة ـ وقلبه يخفق فى عنف.. واقترب من البرنس، فى تحد خائف، وهو يمر من جانبه متجها ببطء متعمد وهادئ إلى دكان المعلم سرحان الكبير ومر إلى جوار البرنس، ولم تطرف له عين، وتركه البرنس يمر، وهو يرمقه بنظراته النارية المخيفة، ولكن هذه النظرات التى كانت تؤرق وجوده كله من قبل، لم تعد تثير فيه شيئا، فقط هو مرّ إلى جواره متجها إلى العربة المحملة بالذرة، ود كان المعلم سرحان العجوز ـ ولم يعترضه البرنس فقط اكتفى بضحكة خبيثة كريهة، وهز كتفيه وتركه يمر.

وفوجئ سرحان بعمه عبدالشكور يفتح ذراعيه له وهو يصيح:

ـ ولد اخوى ـ سرحان الصغير ـ يالأحضان يا ولد.. بالاحضان

وضحك فى فرحة حقيقية وهو يتأمل فى وجه عمه عبدالشكور الملىء بالتجاعيد وبالشنب النافر الكث.. وصاح:

ـ مرحب يا عم، مصر نورت ـ متى جئت ـ أمى لا تعرف إنك هنا

ضمته أحضان عمه.. ملأت أنفه بكل عطور الصعيد، العرق والبصل والثوم والحب والتراب، وقال ضاحكا، وهو يتحمل ضربات عمه القوية على ظهره وجسده كله:

ـ ولكن يا عم، اين باقى أعمامى وعماتى، هل أنتم فى زيارة.. وابن بنت عمى عفراء وبنتها سماء، وأخوهما الصغير وائل ـ هل كلهم هنا؟

ضحك عمه وهو يحضنه ويقبله فى وجنتيه، ثم يبعده عنه فى رفق وهو يقول:

- أنت يا ابن أخوى لم تتغير ابدا - سرحان دائما هو سرحان، لا يدرى مما يجرى حوله اى شئ، فقط هو سرحان ويظل ابدا سرحانا

تململ وهو يتخلص من حضن عمه بصعوبة بالغة، وقال:

- واين أعمامى كلهم، عبدالمتعال، وهريدى وسعفان.. وأخبار عماتى، أم الخير، وخديجة، وبهانة ..

عاد عمه يضمه الى صدره فى حنان وهو يقول:

- فيك الخير يا ابن أخوى - كلهم فاكرينك كلهم رايدينك - كلهم سألونى عنك قلت لهم، هوه بخير، سرحان، آخر العنقود وابن أخوى - وجيبنا كلنا - يا سلام يا سرحان لو ترجع البلد يا ولد

ضحك سرحان وهو يقول:

- طبعا يا عم، طبعا، ولكن الحياة فى مصر صعبة وبتعمل رجالة.. ولازم من يوم أرجع للبلد - أمال يا عم

ضمه عمه من جديد الى صدرة، وهو يقول:

- حياك الله يا ابن أخوى، لماذا جئت هنا، أكنت تعرف إننى فى السوق

تذكر سرحان كل شئ، الاكواز الثلاثين والسيدة فى السيارة، والكلب الذى ينبح داخل السيارة، ومحفوظ يشوى عند الناصية التانية، وعم

زكى البقال يترك البقالة، ليقف على النصبة مكانه، وعبالصمد الفطاطرى يعرض الخشب المتفحم فى محله لتستمر النار فى نصبته، وضحك، ثم تندت عيناه بالدموع وهو يقول:

أبداً ياعم، ومرحباً بك فى مصر. ستسعد أمى وسيسعد إخوتى برؤيتك.

فجأة تغيرت ملامح العم، قطب جبهته، وضيق عينيه فى تقليد صعيدى مألوف، وقال فى بطء كأنه ينتقى كلماته:

- مالك يا ولد أخوى؟

وكسر الواو بكل صعيدية وفتحها ، ولمعت عيناه بكل صدقه، وهب من مكانه، وكأنما سيخوض معركة، ثم قال:

- مالك، فيه شئ فيك، خوف يا ولد اخوى

رفع الشومة فى يده، وأحمرت عيناه واهتز شاربه وعاد يقول:

- قول يا ابن اخوى، عشرين شمروخ وراك، مين يمس شعره من راس ولدنا ويبقى سالماً!

وصمت سرحان. وقد بدأ قلبه ينبض فى عنف.. والتفت ينظر إلى حيث وقف البرنس وكانت النظرة فى عين البرنس مثيرة للرثاء فضحك وقال:

- لا يا عم، انا جئت أخذ من عربة الذرة. قل. أربعين كوزا

قال عمه:

- تأخذ ما تريد يا سرحان، هدية من عندى لا يحاسبك عليها احد.

قال فى خجل:

- ولا أمى؟

قال عمه فى اندفاع صعيدى اصيل:

- رقبتى يا ولد أخوى، اربعين كوز ماتسوى.. خد مائه كوز، والآن، هذا مالنا يا ابن أخوى، وأنت أولى به - هل عندك كلام يا معلم رسلان؟

لم يتكلم المعلم رسلان، ولم يتكلم البرنس - وحمل سرحان الأربعين كوزا فى زكيبه فوق ظهره، ومضى وهو يقول لعمه:

- تسلم لى يا عم..

قال عمه وهو يضحك ويلوح له بيده:

- يا ولد اخوى المال مالك، والذرة نتاج أرضك.. روح ربنا معاك

ونظر يبحث عن البرنس فلم يجده، كأنه فص ملح وداب، ولم يكن يهمه هذا، لم يعد يهمه البرنس ولا المعلم عبدالحفيظ، نفسه المهم أن يسرع بالذرة إلى أخيه محفوظ، والمهم أن ينتهيا من شى الذرة قبل أن تصل المدام صاحبة العربون.

حمل الزكيبة البلاسيتك فوق كتفيه ومضى يجرى، كانت ثقيلة، ينحنى كتفه تحتها، ولكنه مضى يحملها ويهرول جاريا نحو الناصية التى تقع عندها نصبته، والصفيحة والفحم المشتعل، والذرة تشوى، فى انتظار أن يعود.

وزكى البقال يمسك المروحة الريش فوق كوز الذرة، وضحك وهو يدخل الشارع مسرعا، وان كان يعظل، فالحمل فوق كتفيه ثقيل، والموعد اقترب، والهانم صاحبة العربة، لم تمهله الكثير من الوقت ـ من يدرى ربما وصلت هى والعربة والكلب.

وقبل أن يصل إلى الناصية طالع سمعه نباح الكلب، كان يعرفه، هذا الصوت عرفه منذ اللقاء الأول إلى جوار العربة

توقف، ونقل الحمل من الكتف اليمنى إلى الكتف اليسرى، وتعثر، وكاد يسقط، وجمع نفسه وعزيمته، وعدل الحمل على كتفه وعاد يسير فى سرعة نحو الراكية هناك. عند طرف الشارع وأمام دكان زكى البقال كانت هناك اضواء، وكان هناك ناس

جمع يتكاكأ حول النصبة التى أقامها عند حافة العمارة التى لم يكتمل بناؤها بعد

ولكن الناس كثيرون ـ زحمة، سرحان، وعواء الكلب من بعيد، وإلى جوار النصبة تقف العربة هل تأخر، هل ضاعت (بيعه) الليلة، ويجرى ـ ويجرى، وهو ينقل حمله من كتف إلى كتف ـ ويجرى ويلهث ويجرى ويتعثر، ولكنه يجرى دائما إلى أمام

وبؤرة النور تقترب، والأصوات تقترب، ونباح الكلب يقترب وهو الآن يراهم بوضوح وكلما اقترب سرحان أحس أنه يعرف كل واحد هناك يقف إلى جوار الراكية التى زهزهها عبدالصمد الفطاطرى بالفحم من فرنه، ووقف يشوى عليها اكواز الذرة زكى البقال ـ ويكاد يقسم أنه

رأى سمير صاحب محل العصير يساعد الآخرين، ويلوح بقطعة ورق مقواه فوق الفحم المشتعل.

وحين ازداد اقترابه، خرج محفوظ فجأة، من وسط الجمع المحتشد وأسرع يجرى إليه وهو يصيح:

ـ عفارم يا سرحان، عفارم ـ سنستطيع الآن آن نوفى بالمطلوب ـ وظل يجرى إليه حتى وصل

أحس سرحان بيدى محفوظ على كتفيه حتى تهاوى وسقط، وحمل الذرة يرقد إلى جواره، وهو يريد أن ينام ويستريح ـ ينام ويستريح وينسى كل شئ

وقال محفوظ:

ـ تعبت يا سرحان، لكن قم، أحمل عنك بعض الحمل ونسير ـ قم يا سرحان

وعبرت أمامه صدرة أمه الطيبه بابتسامتها العذبة الحنون الصابرة، ثم صورة اخته وهى ترفأ دمعة، وتشد أزره، وتبتسم فى وجهه كملاك ـ ثم صورة المعلم عبدالحفيظ يقف حائلا بينه وبينها فهب صارخا وهو يقول:

ـ لا.. امى لا.. لا تضربها ـ امى لا ـ

هدهده محفوظ وهو يقول:

ـ قم يا سرحان.. قم.. وافق.. انت بيننا الآن.. ونحن سنشوى الذرة كلها التى تريدها المدام، والتى يريدها غيرها قم

وقام سرحان ينفض عن رأسه الحلم الكئيب

ووجد الكل هناك

- زكى البقال يشوى الذرة والى جواره فتاتان انيقتان، كل واحدة تتبارى فى تقليب الذرة - وراكية محفوظ مشتعلة وحولها زكى الفطاطرى وسمير صاحب محل العصير يتبادلان التهويه على الذرة وإلى جوارهما فتاتان لا يعرفهما ، تقلبان الذرة فوق الشواية وهما تتضاحكان

ويضع سرحان حمله على الأرض، واسرع نحو الراكيات المشتعلة وهو يصيح:

- معى الذرجة، معى الذرة

ضحكت الهانم عند الراكية وقالت:

- كنا نعرف انك ستجئ بكل الذرة التى نريد

وصاح محفوظ:

- سرحان وصل ومعاه الذرة يا أولاد

وقال زكى البقال:

- تعال خد مكانك يا أخى فقد أتعبتنى وأريد أن أعود إلى زبائن البقالة، فقد لامونى وضجروا منى، وأنا أنتقل من الراكية إلى البقالة، ومن البقالة إلى الراكية

وقال سمير صاحب محل العصير

ـ يا سلام يا أولاد، كل هذا العدد من الذرة ـ مسعود أنت يا سرحان، تعال، تعال خذ مكانك ـ لأعود إلى العصير ومشاكل العصير

وقال عبدالصمد الفطاطرى:

ـ تسلم يا ولد يا جميل ـ انتهيت من كل الذرة التى عندنا، وخفنا أن تهزم الست صاحبة الطلب، ولكنك جئت بالذرة الجديدة فى وقتك تمام

وقالت الفتاه بابتسامة حانية:

ـ كله تمام يا سرحان ـ ساعدنا قدر ما استطعنا، وكدنا نفقد الأمل فى أن تقدم لنا مزيد من الذرة فى حفلتنا الليله ـ الذرة بارتى ولكنك جئت بالذرة المطلوبة، أنت ولد تمام

وضحكت، وضحكت زميلتها على النصبة التى وقفتا عندها، بينما ضحكت امرأتان عند راكية محفوظ، وإحداهما تشير بيدها إليه، والاخرى مشغولة بهز المروحة على النصبة وتقليب اكواز الذرة التى تشوى فى بطء

قال سرحان وهو يسترد أنفاسه اللاهثه،

ـ الاتفاق اتفاق يا هانم، وهذه هى الذرة التى طلبتها وزيادة

قالت ضاحكة:

ـ وسنطلب الزيادة يا سرحان، كل ما جئت به نحن نريده، والليلة ليلة الذرة المشوية وضحكت، وضحكت معها كل النساء اللاتى يقفن هنا وهناك، امام راكيات النار

اندفع الى مكانه وهو يصيح فى محفوظ:

ـ هات الذرة التى جئت بها يا محفوظ، نكمل الطلبية

قال محفوظ:

ـ عند كلامك يا سرحان ـ هذه ليلة العمر، فلم نشو أبدا كل هذا العدد من اكواز الذرة، ولكنها ضربة لا تتكرر ـ اصح لنفسك يا سرحان ـ وحاذر ان يحترق كوز تشويه على عجل

ضحك سرحان وهو يأخذ المروحة، من يد السيدة التى كانت تمسكها وقال:

ـ يا هانم ابعدى عن النار، وكل شئ يصبح تماما بإذن الله

وأخذ يحرك المروحة امام النار، وهو يشاهد محفوظا والآخرين يحملون حمل الذرة الكبير الى حيث نصبته ونصبة محفوظ.

صاحت تقول:

ـ كل هذه الذرة لنا

قال ضاحكا:

ـ لكم ما تطلبون والباقى لزبائن آخرين

صاحت دهشة:

ـ زبائن غيرنا..؟ كيف، نحن كل ما فى القرية من أسر.. فمن أين لكم الزبائن الآخرين ـ؟

من بعيد، من وسط الانوار المتفرقة على جانبى الطريق، شاهد شبح المعلم عبدالحفيظ يلوح، وهو يتحرك فى بطء، وإلى جواره - بل خلفه بخطوة أو خطوتين يتحرك شبح البرنس - طال صمته فعادت تقول فى اصرار:

- من أين يأتى هؤلاء الزبائن يا سرحان؟

توقفت يد سرحان بالمروحة فوق النار، ونظراته مثبتين على القادمين فى بطء، كانا يتحركان فى بطء حقا ولكن فى تهديد، ووعد وقال:

- الزبائن يأتى بهم علم الله

أصرت قائله:

- من أين يا سرحان؟

كان المعلم عبادلحفيظ قد وصل، ومعه شبح البرنس - وقفا امامه تماما - وكانت هى لا تزال تسأل دون أن تحس بما أصاب الشارع كله من وجوم وصمت - واستمرت تقول:

- لا، لا أحد غيرنا فى القرية كلها، يأخذ الذرة المشويه، نحن اتفقنا معك - ونحن فقط الذين نقيم الذرة بارتى

فجأة صاح المعلم عبالحفيظ:

- تشتغل من ورايا يا ولد؟

وسكت الشارع كله وصمت.. يد عبدالصمد الفطاطرى توقفت عند الفرن فلم تعرف أتخرج الخشب المتفحم أم تخفيه.. ويد زكى البقال

وقفت فوق الراكية، لا تعرف هل تستمر فى التهوية على الذرة، أم تعود وصاحبها معها إلى البقاله ـ ويادار ما دخلك شر.

كل الشارع تكهرب، وكل شئ صمت وتوقفت كل الاصوات

وتقدم البرنس مزهوا بجسده الفاره وعضلاته النافرة ـ ووقف امامه

وهرع إلى جداره محفوظ، وقد ترك مكانه على الراكية لسمير صاحب محل العصير

وقال المعلم عبالحفيظ في غلطة جافية، ملأت الليل والمكان ـ واسكتت الكل

ـ يا ولد، تبيع من ورائى وتسرق زبائنى، لا عشت أنت، ولا عاش اخوك، ولا عاش أحد فى الحى كله ـ أنا المعلم عبدالحفيظ ـ لا شىء يتم إلا برأيي وموافقتى.. من أين لك بكل هذا الطلب على الذرة.. ولمن ستبيعه كله أو حتى نصفه.

وساد الصمت الطريق كله، حتى الأيدى التى كانت تتحرك فوق الجمرات التى وضعت فوقها الذرة هنا آو هناك وقفت تماما

وامتقع وجه سرحان، وإلى جواره وقف محفوظ يهتز فى قلق ـ وعاد صوت المعلم عبالحفيظ يصرخ فى غضب:

ـ أنا المعلم هنا

وفجأة نبح الكلب نباحا عاليا، وسط كل هذا الترقب والسكون وخرجت الهانم تلوح بيديها، وتقف وسط الجمع المتوفز وهى تقول:

ـ أنا اشـتـريت كل مـا عنده من ذرة.. أنا الشارية بالنيـاية عن كل القرية، ونحـن سنشـتـرى كل الذرة المشـوى الليلة.. ولكنه زاد المسـألة، فنحن لا نـريد أن نشتـرى كل الذرة الجـديـدة التى جاء بـهـا ـ يا مـعلم أنا معك هذا تصرف أخر.

صاح المعلم عبالحفيظ وقد تفتحت ذاته:

ـ يا ولد ـ الهانم تشترى منك، وكان المفروض أن تشترى منى أنا،، وها هى ستشترى مـاعندك، فلماذا كل هذا الباقى ـ ولمن، اخبرنى يا ولد

قبل أن يتكلم كـان البـرنس قد تقـدم حـيث صمت الجـميع ليمسك بخناق سرحان بيد واحدة، بينما يصفعه باليد الثانية صفعا متتاليا عنيفا

وصرخت الهـانم، ونبح الكلب، واندفع مـحـفوظ الذى دفعـه البـرنس بقدمـه دفعة ارسلته بعيدا.. بينما شدد من قبـضتـه على رقبة سرحـان بينمـا قفزت إلى يده الأخرى مطواه، ضغط عليها فاندفع سلاحها يلمع فى الاضواء المتناثرة من جنبات الشارع ـ وصاح سمير:

ـ هذا عيب يا معلم

وتقدم سمير خطوات، فلوح البرنس بالمطواة فوقف سمير فى مكانه مترددا

بينما رفع عبدالصمد قطعة خشب ضخمة فى يده مهددا، وخرج زكى البـقـال بسكينة الجبن الضخـمـة فى يده وصـاحت المدام مـولولة، ونبح الكلب، وصاح المعلم عبالحفيظ وهو يرفع يده:

ـ كله يلزم مكانه، كله يلزم حده ـ الواد ابنى وأنا أربيه.. واد غلط فى عمه ولازم يتربى

وعاد البرنس يضغط على عنق سرحان ويهزه فى عنف، وبرزت عينا سرحان من مقلتيه فى ذعر بينما امتلأ وجهه بالعرق.. وعاد المعلم عبالحفيظ يصرخ قائلا:

ـ وتاخذ تلاتين قرشا فى الكوز يا مفترى صحيح (الذى) تفتكره موسى يطلع ابليس

ـ أفاقت الهانم من وجومها، واندفعت تقول:

ـ لا يا معلم.. الحق يقال ـ خمسة وعشرون قرشا فقط، لم يطلب غيرها والله العظيم

صاح المعلم عبالحفيظ فى سخرية:

ـ عبيط واهبل ـ حفلة كهذه، وهانم مثلك، ياخد خمسة وعشرين قرشا فقط ـ يا سلام حقيقة مغفل.. ثم صرخ:

ـ خد منه القلوس يا برنس ـ دى حقنا احنا، محدش يضحك على المعلم عبدالحفيظ

وفجأة صاح زكى البقال وهو يتقدم بسكينة المشهرة:

ـ لا، دى فيها دم يا جدع ـ اترك الولد يا من اسمك البرنس وإلا، لا مطوتك، ولا انت، ولا غيرك، ولا المعلم الذى يفرد علينا طوله، وفى حتتنا حيخرج من هنا سليم ـ دى الحتة لها حرمة، والولد فى عرضنا، ولسنا هفية ولا لعبة،

والتفت إلى الجميع حوله وهو يقول:

- غلط ام صح يا رجالة

وتحركت عينا البرنس فى قلق، وقد خفت قبضته على رقبة محفوظ، وهو يلاحظ وجوها عديدة خرجت من كل مكان، وامتلأ بها الشارع وأحاطت به.. ومد بصره الى المعلم عبدالحفيظ متسائلا.. ولكن المعلم عبدالحفيظ كان قد فقد نظرة الثقة والاعتزاز التى كانت تملأ عينيه، كانت فى عينيه نظرة دهشة وتساؤل.

وعاد زكى البقال يقول:

- ماذا قلت يا معلم عبدالحفيظ، ترك الولد فى حاله، وإلا الكلام التانى

وقبل أن يرد عليه أحد - اندفعت شابة تلبس طرحه سوداء ناحية البرنس وسرحان ورمت نفسها فوق البرنس، تمسك بيديها يديه اللتين تضغطان على رقبة سرحان وهى تصرخ:

- يا ابن ستين تضرب سرحان، لا كنت ولا كانت أمك ولا كان أبوك - سيب سرحان يا صعلوك

صاح المعلم عبدالحفيظ وقد وجد هدفا سهلا:

- بنت يا عايدة، احتشمى، وابعدى عن الشارع يا بنت.. هذا فجر

لم تكن تسمعه - وإنما كانت تصرخ وهى تضرب صدر البرنس بقبضتها مرة، وتتشبث بكتف أخيها محروس تحاول أن تنتزعه من قبضة البرنس مرة، وتضرب الأرض وتشد شعرها مرات

ولم ينتظر المتجمهرون شيئاً آخر، فقد صاح زكى البقال:

- لم يبق إلا أن تهان الحريم أمامنا

ولا يدرى أحـد كـيف طارت المطواه من يد البـرنس، ولا كـيف احتضنت عايدة أخاها سرحان وهى تبكى، ومحفوظ يتقافز حولهما وهو يصرخ..

الذى حدث إن البرنس وقع على الأرض.. وداسته أقدام وأقدام، وقد اخذ يصرخ وهو يحيط رأسه بذراعيه يحميها من الركلات، بينما أحاط جمهرة من الرّجال بالمعلم عبدالحفيظ الشاحب الوجه، المهتز الشارب، وهو يدافعهم عن نفسه بشومه طويلة فى يده

وفجأة دوى صوت صعيدى أخر:

- كفى يا رجال.. كفى، هذه حكاية لا يحلها الشجار

كـان عـبدالودود يقف ووراءه خـمـسـة من الصـعـايدة وفى يدهم الشماريخ. وبضربة من عصاه طارت الشومة من يد المعلم عبدالحفيظ، بينما اندفعت من خلف الصعايدة سيدة سمينة تلبس السواد نحو المعلم عبالحفيظ وصاحت به:

- قلت لك هؤلاء اولادى لا دخل لك بهم، وهذا الكلب البرنس ابن أختك كلب فاسق انذرته أن يترك سرحان فى حالة والآن يضرب ويخنق ويرفع السلاح، والمال ما لهم يا عبدالحفيظ، هم أحرار فيه يا عبدالحفيظ - تريد أن تأخذ عرقهم، أخذك ربنا إلى جحيمه يا حاجد النعمة.

كان البرنس يتحامل ليقف وهو يتخبط بين السواعد الكثيرة المحيطة به، بينما كان المعلم عبدالحفيظ يقف واجما وهو يقول:

- هذا الكلام لن يعجب المعلم رسلان، فأنا رجله فى السوق

خرج المعلم رسلان من وسط المتجمهرين وهو يقول:

- الاتفاق بينى وبين المعلم عبدالودود يـ معلم عبدالحفيظ ونحن نأكل من خيره، وما يقوله هو يسرى على الكل- فهو صاحب الذرة، وصاحب الأرض- وأنت من الآن خارج السوق

وقال عبدالودود وهو يشير بعصاته:

- نروح البيت نكمل الكلام، ويحصل الطلاق، ويعود ولد أخوى معى ومعهم أمهم معززين مكرمين الى البلد

وهنا اندفعت الهانم صاحبة العربة تصرخ:

- الدرة ومن غير الدرة يبزط البارتى

نظر إليها عبدالودود مندهشا، بينما تحولت إليها كل الوجوه فى استفسار.. وتقدم سرحان ليقول:

- كلمة الرجال كلمة واحدة، ونصف ساعة والدرة ستكون جاهزة.

وصاح محفوظ وهو يجرى نحو شوايته

- تمام يا هانم ثم كلام سرحان لا ينزل الأرض.

قال عبدالودود:

- خدوا شوايه المعلم عبدالحفيظ الكبيرة فهو لا يحتاجها الآن - تمام يا عبدالحفيظ

اطرق عبدالحفيظ وهو يسير متخاذلا ووراءه البرنس، بينما صاح محفوظ:

- تعال معى يا عبد الصمد نحضر الشوايه

قال المعلم عبدالودود:

- كل رجالتى معاك، وعلمهم كيف يشوون الذرة يا سرحان

عوى الكلب، وضحكت الهانم،.. بينما امتلأ الشارع بالحركة، والكل يسرع ليحضر الشوايه الكبيرة من الميدان لتنصب إلى جوار شوايه سرحان.

رحلة السندباد المجهضة

وأكتب لك ياحبى الأوحد

أنا السندباد أقلع من ألف ميناء بحثا عنك فى ألف جزيرة، وأدخل كل الجزر، وأقتحم كل مجهول، وأعرف الوجود والكيان، وماعليه الناس

- أنا السندباد أعود من كل رحلة خاوى الوفاض، فليس فى جعبتى إلا الماس والجوهر.. أما أنت ياحبيبتى فلم أجدك فى كل الجزر التى رست سفينتى فيها، تلك التى حطمت الريح أشرعتها ومجاديفى لأستقر فى وجودها الموحش المعتم.

ثم أعود بكل ذهب الجزيرة.. الذهب والجوهر

وأنت ياحبيبتى وحدك أعود من غيرك

وما الذهب، وماالجوهر، وأنت أنت، غائبة عنى، لاأجدك ياحبيبتى وأكتب إليك ياحبى الأوحد

وكل مساء وحدى فى قاع السفينة أكتب إليك.. وسط الرياح الهوج تقتلع السفينة من مسارها وترميها فوق الصخر الأصم، ذكرت اسمك - وتحطمت السفينة، ومات الملاح، وأكلنى وحش الجزيرة وحيد العين، شاهق القامة، مخيف النظرة، شديد الجوع لكل لحم بشرى - وكما أكلنى أكلته، وطهرت الجزيرة من وجوده البشع الوحشى.

ولم أجدك - مات الوحش، وأقتلعت عينه الوحيده، بإرادة الحياة فى وجودى، وخرجت من الجزيرة الصخرية أبحث عنك ولم أجدك ياحبيبتى.. ناديت باسمك وسط كل التعاسات، ولم يجبنى أحد - الصخر لايعرف من أنت، ولاأين توجدين.. والرياح الهوج تبتلع صرخاتى باسمك فتتداخل الحروف.. وضاعت صرخاتى وأنا أصارع خوفا وعناءا لايقطعهما إلا صرخات الوحش ذى العين الواحدة الذى أكلنى، وأنا أقتله، وأغرز رمحى فى عينه الواحدة ليعمى ويموت..

وأنت ياأنت لا صدى لا سمك فى الجزيرة القاحلة إلا من بقايا الوحش، ومن كانوا طعامه على مدى أجيال وأجيال، وسنين وسنين كل عظامهم ترتج وهى تردد معى اسمك.. اسمك، حتى قتلت الوحش وقتلت معه الصوت والصدى لأننى كنت أريد العودة إليك - وأصرخ باسمك، ولاصدى ولا صوت، فقد مات على يدى كل صوت، وكل صدى، فالجزيرة صخرأصم، والوحش مات، وضحاياه كلهم ماتوا حتى لم تبق منهم إلا العظام التى أكلها الوحش الذى أكلنى من قبل - ومات على يدى، ومات معه الصوت والصدى وأكتب إليك ياحبى الأوحد..

وقد كان فى كل جزيرة مرت بها السفينة ألف حكاية وحكاية، وكل حكاية تسلم إلى حكاية، وأنا أبحث عن الماس، المعدن الجوهر فى كل حكاية، فإذا أنا مرمى فى قاع الوارى، والماس مبذول، والجوهر ملك من يريد، وأنا بعيد بعيد، عن الوجود والحياة – وأتلفت حولى فلا أجد منقذا من الوادى المغلق، الجبال تحوطه، تعزله، ولامخرج إلا الموت الأكيد على أرض الماس والجوهر. وجمعت الماس والجوهر، ملهوفا جمعت كل الماس والجوهر.. والماء جف حتى تقلصت شفتاى، وتشقق حلقى، وتحجرت اللهاة ـ ولكنى جمعت الماس والجوهر ـ والجوع اعتصر وجودى كله، حتى أكل جسدى، كل جسدى، وحتى التهم الحى منى، الضعيف المتهاوى، وحتى جرت معركة يخوضها الآكل ضد المأكول، وحتى ضعت كلى ـ وأنا أجمع الماس والجوهر ـ وتعلقت بمخالب الرخ حين جاء، وحملت معى الماس والجوهر ـ وشربت نفسى نفسى، وأكلت نفسى نفسى، والرخ يطير، من عالم إلى عالم، ومن أرض إلى أرض، ومن دنيا إلى دنيا، وأنا مربوط إلى مخالبه، والجوع يأكلنى، والعطش، يشربنى.. والماس والجوهر بين يدى.

وجئتك ياحبى الأوحد بكل الماس والجوهر

رميته تحت أقدامك، وأنا أصرخ: أنا السندباد عاد من ألف رحلة مخوفة تعسة، أنا السندباد جاء من وراء الموت بعد أن أكله الوحش ذو العين الواحدة، وبعد أن قتله شبخ الجزيرة الملعون، وبعد أن غرس الرخ مخالبه فى صدره وامتص دمه كله ـ أنا السندباد جاع حتى أكل كله كله، وعطش حتى شرب كله كله ـ أنا السندباد جئت بالماس والجوهر.

بحثت عنك ياحبى فى كل ميناء، وكل جزيرة، وكل بحر، ولم أجدك ياحبى.

صرخت باسمك فى وجه كل ثعبان، وكل تنين وكل وحش، ولم أسمع صدى إلا فحيح الثعبان، ونار التنين، وصرخات الوحش.

لا أنت ـ ولااسمك ـ وليس إلا الماس والجوهر ـ

وهاهو أمامك ياأنت ياحبى الأوحد

وهجه تعتمه قطرات من دمائى، ألقه يبهت حين مسته أنفاسى اللاهثة المعناة، تتحشرج فى صدرى وهى تحاول أن تجد مخرجا لها وقد اطبقت أذرع التنين على رقبتى وصدرى وقلبى ووجودى كله..

يا أنت

هى تحت قدميك.. الوهج والألق ـ الماس والجوهر

بعد الرحلة المعناة، بعد ألف رحلة معناة ـ بعد ألف موت وألف حياة ـ هاهو حصاد كل الأشياء ـ كل المعاناة، كل التعاسة، كل الموت، كل الصراع.

لماذا.. ياحب.. لماذا؟

أنت نزوسين على كل شيء بقدميك، تحطمين الماس والجوهر بحذائك ـ

أنت تبصقين على كل شئ بشفتيك، تلونين الماس والجوهر بازدرائك.

لماذا.. ياحب لماذا؟

فى عينيك إنك لاتعرفين من أنا؟

فى عينيك إنك تنكرين من أنا.

أنا السندباد.. أقلعت من ألف ميناء بحثا عنك، فى ألف جزيرة.. ودخلت كل الجزر، واقتحمت كل مجهول، فعرفت الوجود والكيان وما عليه الناس

ولم أجدك يا حبى الأوحد.

ولم أجد صوتك يا حبى الأوحد.

ولكنى حين عدت وضعت كل حصاد العناء تحت قدميك لماذا.. لماذا يا حب.. لماذا؟

ألأنى ابتعدت..؟

كنت أبحث عنك.. وأبدا لم أجدك.. وأبدا لم أسمع صوتك

ألأنى جبت الدنيا بحثا عنك.. وتركت جسدى نهب الرماح والسهام والسيوف، وأنياب الوحوش، وسم الأفاعى.

كنت أبحث عنك.. وأبدا لم أجدك ـ وأبدا لم أسمع صوتك ـ

الآن هذا هو كل حصادى

الماس والجوهر..؟

ماأتعس عناء الرحلة، وماأتعس حصادها

ذهبت أبحث عن الماس والجوهر.. والماس والجوهر أنت

وحين عدت ذاب الماس والجوهر تحت قدميك، فما هو أنت، ولن يكون أنت

أنا السندباد، انتهت رحلتى حين أكلتنى عينيك، كما أكلنى الوحش، والتنين ـ وأبدأ رحلتى من جديد ـ ولكنى لن أبحث من جديد عنك، فقد أضعتك يوم بحثت عنك، يوم غاب عنى صوتك، وغبت أنت ياحبى عنى ... أرحل بلا أمل فى عودة، تقذفنى الرياح الهوج من جزيرة إلى جزيرة، ومن ميناء إلى ميناء، ومن مجهول إلى مجهول ربما أنسى إننى أبحث عنك.

زهرة السلوان

كنت حبيبى، مرصودا لى منذ الأزل، منذ كتب كل شىء فى لوح محفوظ يرصد لكل قدره، ويحدد لك مصيره.

وألتقينا ياحبيبى، فعرفت أنك أنت هذا الوجود القدرى الذى ربطته الأقدار بوجودى، أنت معنى هذا الرباط الأزلى السرمدى الذى يجمع بين رجل وامرأة.. فإذا هما اثنان فى واحد، وإذا هما كيانان فى كيان، وإذا هما الوجود كله فى تكوين ملتحم متمازج، هو الوجود المستمر، وهو الحياة الصخابة الباقية

تفتحت زهرة، وازدهت أوراقها، وفاح أريجها، معطرا كل ماحولها، وقالت:

- أنا عطر الحياة ووجودها

وهبطت فراشة أنيقة ملونة فوق الأوراق الممدودة، ورفرفت بأجنحتها الرقيقة وقالت:

ـ وأنا صاحبة هذا العطر، ومالكة هذا الأريج

وانطوت الفراشة بأجنحتها الملونة الرقيقة فوق الزهرة فتأودت لها واحتوتها، وتضاما وتعانقتا، حبا عنيفا مثمرا، فقد وشت كل واحدة منهما للأخرى بسرها، سر حياتها ووجودها، سر معناها، سر مرحها وطربها، سر ألوانها الزاهية المزهوة بالحياة والوجود.

ومن هذا الاستغراق العميق فى معنى الحب، سأل كل منهما نفسه، من هو الأصل؟ الزهرة برحيقها الفواح، أم الفراشة بألوانها الزاهية الآسرة..

وأطبقت الزهرة بأوراقها الوردية المزهوة على الفراشة تحتويها كلها، وتكسرت أجنحة الفراشة وذابت عشقا وحبا فى رحيق الزهرة، واستنامت لقمة الحب دهرا.. وضاعت..

هل ضاعت..؟

أبدا ـ حين أفاقت الوردة من نومتها السحرية، وفتحت أوراقها من جديد لأشعة الشمس والحياة.. كانت أوراقها أشد ازدهارا، وكانت ألوانها غامضة جذابة، أكثر إثارة وجذبا.. وكان رحيقها أشد عذوبة، وكان عطرها فواحا مع النسيم يدل بسره المكنون، كانت دماء الفراشة قد ذابت حبا فى قلب الزهرة، وغذت فيها اللون والرحيق والرائحة.. وتضرعت الوردة واختالت ليحمل النسيم جمالها ورقتها تجذب الفراشات الباحثة عن العطر والجمال والرحيق.

لم تضع الفراشة، وإنما ماتت عشقا، وذابت فى زهرتها التى كانت موعدها المرتقب.

قالت:

- كنت أبحث عنك

كانت أول مرة يلتقيان، وكان يغوص بعينيه فى عينيها. وصور ورؤى كثيرة تمر أمام عينيه فتهز وجدانه، ويمور قلبه بإحساس مبهم غامض، وحكى الزمان فى هذه النظرة الطويلة حكايات كم تكررت، كانت وزالت.. ولكنها تحفر وجودها، أفراحها، أحزانها، أساها، فى القلب المعنى الذى يبحث عن سلوان، ولا سلوان له.. قال:

- أحس أننى أعرفك من عمق الزمان، لاأعرف متى ولاأين، ولكنى أيضا كنت أنتظرك.

كنت حبيبى، مرصودا لى منذ الأزل، منذ كتب كل شىء فى لوح محفوظ يرصد لكل قدره، ويحدد لكل مصيره.

والتقينا ياحبيبى.. فى واحدة أخيرة من سلسلة لقاءاتنا عبر الزمان وعبر المكان.. حيث تختفى الذاكرة، وتنسى الأحداث، ولكن إحساس اللقاء موجود فى الأعماق، محفور فى القلب.

والتقينا ياحبيبى بعد عمر سحيق فى الزمان وبعد جولة تائهة فى المكان.

وتعارفنا، وازدهى الكون ونور، وصحا قلبانا على شىء جديد

الحب ياحبيبى أنا رحيقه الذى يغرى كل الفراشات الظمآنة إلى الرحيق الحى تنقله من زهرة إلى زهرة، لتحقق معنى الوجود الحى المتجدد أبدا، لتحقق معنى الحب الخالد المستمر أبدا.

كل زهرة قالت: حذار من زهرة السلوان،.. حذار هى تمتص الفراشات التى ترفرف حولها، وهى تذيبهن فى وجودها، هى تصنع من دمائهن رحيقا دائما غريب العطر غامض العطاء، وغامض اللون - حذار.. حذار.. من زهرة السلوان.

ياحبيبى وما أنا إلا عاشق لسلوان زهرك، ماأنا إلا عاشق لرحيق عطرك وأنا أندفع إلى حضن أوراقك، مغمض العينين، زائغ البصيرة، فما اللون إلا أنت ومياالرحيق إلا أنت، وماالحب إلا أنت

وشوشات الأزهار قالت: حذار من الزهرة القانية - حذار.. حذار..

قالت: الحب ياحبيبى، هذه الأجنحة الرقيقة ترفرف، هذا، اللون يملأ وجودك كله ويستجيب وجودى كله إليه - أنت فراشتى، أنت أنت، ولافراشة لى غيرك.

الحب أنت ياحبيبتى، عطرك المتضرع الوهاج يجذبنى إليك دون كل الزهور، أنت أنت زهرتى، ولا زهرة لى غـيـرك، ألوان أوراقك الوردية حولك تدلنى عليك، رائحة اللقاح الغامض المعطر المكنون فى داخلك تسوقنى خاشعا إليك.

فأنت حبى، وقدرى الموعود.. أحمل منك اللقاح من زهرة إلى زهرة، لتولد الحياة من جديد.. فما الحياة إلا رفرفات أجنحتى حين أنتقل من زهرة إلى زهرة، أحمل معها معنى الحياة والوجود

ورفرفت الفراشة وحطت على الأوراق الوردية العطرة الغامضة الرائحة التى تفتحها الزهرة

قالت:

ـ تعال ياحبيبى، حط على ورد وجودى، تقدم إلى عطر رحيقى، غص فى كيان عطرى

قال وهو ينتقل بأقدامه فوق وردها الملون الرائع:

ـ أنت حبى الذى انتظرته منذ القدم

قالت، وأوراقها تتسع وتتسع لتحتوى أقدامه وأجنحته الرقيقة، ووجوده كله

ـ تعال.. أنت حبى الأبدى

قال:

ـ كل الأزهار حذرتنى من حبك

ضحكت، وفى الضحكة عطر عبق، وفى الأوراق تأود معطاء حنون، وقالت:

ـ ولكنى أحبك أنت

قالت الفراشة، وهى تقف على حذر فوق الأوراق الملونة

ـ أنت حبى، واحمل عطرك إلى زهرة أخرى ليوجد الوجود كله

قالت الوردة وهى تتأود بأعطافها وتدل بأوراقها الملونة، وتبعث بعطرها الفواح، ورائحة تفاحها الغامضة:

ـ ولكنى أحبك أنت، تعال نلتصق، لاأنت تغادر ورقى إلى زهرة أخرى ولا أنا أفتح وريقاتى لفراشة أخرى قالت الفراشة:

ـ نلتصق وأموت؟

قالت:

ـ وتخلد فى؟

رفرفت أجنحة الفراشة بعيدا عن الوريقات المتعطشة القاتلة، وكانت تقول:

ـ أنت حبى أنا، تعال ـ أنا الأبد أنا الوجود، أنا حبك

قالت الفراشة وهى تفلت بأجنحتها الملونة من قبضة الأوراق والروائح الغامضة المنبعثة من رحيق أكثر من فراشة:

ـ لا، أنى أحس رائحة الآخرين

قالت الوردة:

ـ لا فراشة لى غيرك

قالت الفراشة

ـ أنت كاذبة

بقايا الأجنحة، بقايا الألوان، بقايا الجسد الممزق.. وهربت الفراشة وتحركت الأوراق فى عنف، فى غضب، فى قسوة، فى تعاسة.. هربت منها فراشة ـ فهى صائحة، نائحة أبدا.. ضاعت فريسة.. ياحبى.. أحبك

أحسست أنك منذ الزمن القديم منذ آماد وأجيال لايعرفها أحد. تكررت فى وجودى، فى عمقى، فى دمى، ولكنى لاأذكرك.

ياحبى.. أفلت من ضمات وريقات وردك، فأجنحتى هشة لاتحتمل ضمة القسوة فى وريقاتك.. وأنا أهرب وأمضى وأسير..

عفوا.. لاحب إلا حبك، ولا عطر إلا عطرك، ولا رحيق إلا رحيقك، ولكنى فراشة خافت قسوة وريقاتك فأفلتت وهربت

ياحبى

أنت تأكلين كل فراش يقع على رحيقك، وأنا فراشة وحيدة لاتريد أن تكون مجرد فراشة أسرت، وأكلت، وذابت فى رحيق حبك الأعظم

ياحبى - عشقتك، ولكن هربت منك، أريد سلوانا عنك، ولاأجد هذا السلوان

سفر الخروج

صفوفا صفوفا خرج الرجال، والسلاح فى الأيدى، والهامات مرفوعة، وصيحات التحية، ووعود العودة. وأناشيد الصمود..

وعند البدء قبلات الأطفال، ودمعات الزوجات، وضمات الأمهات.. والأيدى تلوح.. والدموع تحتبس فى مآق عرفت الدخان والنار ووهج الحديد المصهور، ورأت أشلاء الأصدقاء تطير فى الهواء، ومزق الرفاق تتناثر فوق الجدران، فوق الأرض، فوق المدافع.. فوق القلوب..

ووقف الجميع، والتحية العسكرية والأناشيد، وألف كاميرا تصور رحيل الأبطال، صمودا أمام أعتى أسلحة أمريكا، وأقذر محاربى العصر فى إسرائيل أكثر من شهرين.. وأشهد ياتاريخ، واحك يازمن..

وفى كل تلفزيونات العالم، وفى كل دور السينما فى كل مكان، ظهرت صور الأبطال الذين لم ينهزموا ولكنهم.. حفاظا على مدينة عريقة من الدمار، وخوفا على الأبرياء والأطفال، خرجوا فى طواعية

وفي نظام تغطيهم وعود أمريكا والأمم المتحدة، ومعنى المدنية والحضارة.. ودفء وتجاوب حب الأمة العربية..

ومن مرفأ إلى مرفأ تستمر المسيرة.. والرجال يتحركون، هاماتهم مرفوعة، والأيدى على السلاح والقلوب حديد، وصفارات المراكب تحيي الرجال في كل ميناء، وطلقات المدافع، وبواخر خرجت بالرجال تحيي الحب والصمود والقتال.

ورجال سمان يصدرون التصريحات، ويعلنون الكلمات، ويكرسون الرحيل الذى هو بطولة، والذى هو خروج من عار هزيمة، والذى هو شيء ترضاه أمريكا، والأصدقاء، والعرب الحلفاء، والسماسرة الأوفياء - والكلمات الجوفاء، والصور الظريفة الحمقاء، والضمائر التعسة المريضة المتضخمة المحيطة بالشرفاء.. ياويح الشرفاء..

الرجال خرجوا، وموسيقى العالم كله تحي التعقل والرصانة والمدنية في (البرابرة) حاملي السلاح الذين صدقوا وفهموا وعرفوا وارتفعوا إلى مستوى المدنية، ولم يكونوا جهلاء، أو متعصبين جهلة، أو شرذمة من السفاحين، حاملي السلاح لقتل اليهود الأبرياء.. بل كانوا كما يطلب منهم العصر.. مقاتلين شرفاء.. وكما كان يطلب منهم الحس العالمي، رومانسيين يحلمون بالغد ويحاربون من أجله، ويموتون من أجل معانيه.. ثم يغادرون الأرض في شرف وكبرياء، خوفا على الأطفال الأبرياء والنساء والعجزة، والكبار في السن ممن لايحملون السلاح، وممن لايعرفون شيئا عن القضية، ولم تقصفهم الطائرات الإسرائيلية في عنف وويل؛ ويل الهول المقيم، الآف القنابل، من البر والبحر والجو،

ووراءها آلاف القنابل فوق البيوت، وفوق الناس، وعند عتبات الأسواق، وفوق المتاجر والمصانع والمساجد والكنائس ووراء آلاف القنابل موجهة لصدر كل مرضع وحامل، ولبطون وأعده بأمل العالم في دنيا من الأطفال، يرثون كلمة الله وأرضه..

وخرج الرجال، والسلاح المصون فوق الأكتاف وفى الأيدى لايخفى الدموع في العيون والقلوب، وفى أعمق الأعماق..

ياأرض وداعا، يامنبت الحب وملجأ الأم الأب، ومأوى الزوجة والولد، وداعا، وعلى وعد أن نعود.. ترى هل نعود؟

ياأرز لبنان يامن أويت المشردين حين ضاقت بهم الدنيا، وسمعت نجوى المطحونين حين نسيهم العالم..

ياأرز لبنان.. هل رأيت حبيبى..

خرج حاملا سلاحه والدموع فى عينيه، والصمود المشرف حرم منه، والبقاء الصامد حرم منه، والدفاع عن الأرض والعرض حرم منه.، والاستشهاد بالروح، ورى الدم لعروقك الشامخة، حرم منه.

ياأرز لبنان هل رأيت حبيبى..

بالصدر جابه الرصاص، وبالجسد كله سد فوهات المدافع، وبالروح والجلاجنيت دمر الدبابات، ثم مات.. ووارته أرض لبنان، كما وارته من قبل أرض فلسطين، وصحراء سيناء، وأرض الجولان، وامتص عصيره نهر الأرن، وشرب دماءه الليطانى.. كم راح رافعا معنى الشرف. معنى الصمود، معنى أن يكون الإنسان إنسانا لا سائمة، ولا هامة، ولا عالة على معنى الوجود.

يا أرز لبنان هل رأيت حبيبى..

بالدموع ودعته شهيدا، وصامدا، ومغادرا أرض الحب، إلى أراض من الحب، عله يعود ياأرز لبنان، ياحبيبى.. يامن لملمتنى حيا من كل مكان، وأحتويتنى حيا، حين ضاق بى المكان، وأثمرتنى زهرا مشعا بالحب لكل إنسان وكل مكان.

ياأرز لبنان..

ارجعى ياخولة، ياراغدة، يازنيب، ياميسون.. ارجعن، ارجعن يابنات، فقد رحل الرجال وحولهم وعود العالم، ذلك الذى ورث بيان حقوق الإنسان، وذلك الذى رعى معنى الحرية، وذلك الذى يسبح باسم السلام..

أى الوعود تردن يابنات..

ارجعن يابنات ـ ليخرج الرجال.. وسيسود السلام، ولن تطلق رصاصة، ولن يدوى فى سماء بيروت الحبيبة صفير قنبلة.. كفى رعبا يابنات كفى، فالرجال يخرجون، ومعهم وعود كل المتحضرين على الأرض، يخرجون وقد ضمنوا لكن الأمن والسلام، وحتى لاتضار واحدة، وحتى لاتفجع واحدة، وحتى لاتنتهك واحدة ـ الرجال يخرجون صيانة للروح والعرض والكرامة.

ارجعى ياخولة، ياراغدة، يازينب، ياميسون.. ارجعن، ارجعن يابنات.. فالمعسكر آمن، والحياة آمنة، ألم يقل من يعيش فى أمريكا أنه يضمن، وألم يقل من يعيش فى فرنسا أنه يضمن، وألم يقل من يعيش

فى انجلترا أنه يضمن، وألم يقل من يعيش فى إيطاليا إنه يضمن، ومن يعيش فى الرياض والقاهرة ودمشق وبغداد، وعمان، ومراكش وتونس، هزوا الرءوس استحسانا وسعادة.. ارجعت يابنات، فاليوم آمن، والليل لن يحمل القنابل والخوف.. والصباح لن يحمل الموت والدموع.

ارجعن يابنات، إلى حياة النبع، تغسل السيقان.. ارجعن إلى المرح تجمعن الحطب.. ارجعن إلى المخيم، تهدهدن الأولاد، تسقوهن وتطعموهن.. وتغنيين لهم قبل النوم.. فالغد أمن وسلام..

يابنات أورشليم بيت المقدس، ويابنات يافا وحيفا وبير سبع وغزة.. يامن شردتكن وحشية صهيون وأبناء صهيون.

يابنات صيدا وصور وبيروت.. يامن أمنتكن المواثيق والمعاهدات والأحلام وشرف الرجال..

يابنات..

خيم الليل..

(النطع وضع على السكة والغيلان جاءوا)

يابنات..

خيم الليل.. والظلام يوغل فى وحشته، وكل شيء ساكن، والأولاد ناموا، وهمس حفيف الأغصان، وسكنت خشخشة أوراق الشجر.. ثم صاح صائح من آخر المخيم:

ـ الهول قادم..

وامتلأ الهواء بالصوت المرعب، صوت انفجار القنابل ودوى الرصاص ـ وتحول الليل إلى نهار ـ وصاح صائح:

ـ اليهود قادمون

وصاح آخر:

ـ (المارين) قادمون.

وضاع كل شيء.. اختلط الحابل بالنابل، ورفعت أم هارون على صدرها هالة بنت أم سعدون.. وصرخ الكل، وجرى، ومن لم يصرخ أو لم يجر، صعق في مكانه..

وانطلق الرصاص..

من جرى ومن لم يجر، الكل سقط، الكل صرخ، الكل تمزق، وتحشرجت أناث، وهانت أرواح.. وضاع كل وجود..

النار والرصاص والبارود، وصرخات في الجو، ونور مبهر مخيف، والرصاص يتساقط على كل من يجرى، كل من يقف، وكل من لم يغادر أو غادر أو كان على نية المغادرة.. الكل سقط.. الكل همد.. الرجال الكبار في واشنطن، والأمم المتحدة، والجامعة العربية، والمنظمة الأفريقية، ومنظمة الحريات، ومنظمة اليونسكو، ومنظمات المعونات والأغذية، ومنظمة الصليب الأحمر، ورجال البرلمانات، والصحفيون، ودعاة الحرية، ورافعوا شعارات الأخوة، وحملة الصليب، والمؤذنون في المساجد، والطوافون حول الكعبة، والضارعون في المعابد القديمة، وكل حملة المشاعل، دعاة الإخوة، والمتحدثون عن السلام، والمنابر المقامة في كل عاصمة عربية، وكل من تدعى الإسلام من عواصم العالم..

رغم كل هؤلاء الكل سقط، الكل اجتاحه الرصاص، الكل مات، الكل تمزق.. مزقا وأشلاء.. ..، وآه وآه.. الصرخات حولى، آه وآه المزق تلطم وجهى، هذا رذاذ من دم.. هذه مزق من لحم.. هذه بقايا من صرخات.. ذراع طفل.. جسد امرأة عجوز.. لحية بيضاء وشحتها السنون.

ضاع ـ ضاع ـ وتمزق وضاع..

ضاع.. ضاع.. وتهرأ وضاع..

ضمير العالم ضاع.. وأنا مزق ياولدى تحت قدميك، اجمع مابقى منه، وأقدمه لأصحاب الوعود، والمواثيق وإلمتضامين فى إصرار على خروج الرجال.. قدمه ياولدى، لأصحاب الصلوات الخمس، والمتهجدين عند المحاريب.. وفى أروقة مسجد الرسول والكعبة، والحاملين للعصى يحضون الناس على الصلاة، وللجالسين فوق المنابر يحتضنون السيوف الخشب ويحكون عن أمجاد الأيام التى مضت، وعن أخلاق أصحاب الرسول، ورجال الرسول، ونساء الرسول، وأقوال الرسول.

وأين هو يسمع ويرى عار أبناء الرسول.. ألف رجل دخلوا كالوحوش، الرجل أما تنتهم الرصاصات السريعة، والنساء ألف خنجر، وألف سنكى، وألف ذكر مشرع وجوده.. لتنتهك كل أنثى من الثالث عشر، وحتى الستين

ياعرض من له عرض.

انتهك العرض.. ومات الشرف

ألف يهودى ألف يهودى، يشرعون آلات الانتقام والعذاب والامتهان.. وكل امرأة صاحت، ماتت، وكل امرأة قاومت بقرت بطنها بعد أن بقر شرفها، وماتت..

والله، والله على من يجمعون السلاح ليقاوموا الشيوعيين الغاشمين، والخمنيين الغاصبين، والعراقيين المعتدين، والأكراد الهاجمين، والصحراويين الطامعين، والجزائريين الصاخبين، والليبيين الباغين..

والعرض ضاع، انتهكه من حملوا النجمة، من صاحوا ياصهيون، من قالوا، اليوم نعود إلى أرض الميعاد، إلى قلب فلسطين

ضاع العرب ياأخت.. ضاع.. ولابكاء.. ولا حسرة.. ولامرارة..

فحولنا ألف وعد بالأمن والأمان، ألف وعد بأن كل شيء سيستقر وينتهى حين يخرج الرجال.

وخرج الرجال، ومعهم السلاح.. والموسيقى عزفت، والتلفزيون صور، والتصريحات من كل مكان فى العالم تحيى الرجال الذين خرجوا.

آ ه ياعرض الرجال.. ضاع حين خرجوا وضاع حين تمزقوا، ودجل الوعود من عالم مريض ـ مريض ـ مريض.. وليهنأ كل ضمير.. فالقضية حلت، والرجال خرجت، ومعسكرات النساء والأطفال ابيدت، ولتبدأ كلمات السلام.

يا(شومليت) مزقت لك بطون النساء، انتهكت لك أعراض العذارى، طحنت لك عظام الأطفال، اهنأى اذن يا(شومليت) فالمجد لصهيون،

والمجد لنجمة داود، والمجد لأبناء الحائط المرصود. ياويح العالم.. ويانعس ضميره

وخرج الرجال، وماتت النساء والأطفال والعجائز، وعلا مجد صهيون، وحلت بركات أمريكا. وحل الصمت على ضمير أوربا والروس والعرب.

وهل هناك عرب

لا ضياع الرجال يحركهم

ولا ضياع العرض يهزهم

ولا ضياع الكرامة له وزن عندهم..

فأى عرب.. أى..؟

ويالضياع الإسلام

كل خطيب فى كل مسجد يسبح بحمد الحاكم، أى حاكم، ويدعو له بالنصرة والعزة والبقاء.. أى بقاء..

والحجيج يتدفقون إلى مكة يلمسون الحجر الأسود ويعيشون العار الأسود، ويطوفون بالكعبة والمدينة، وقد مرت أشهر الموت والعار الأربعة.. ويذهبون إلى مسجد الرسول يرفعون الأيدى بالدعاء، وهم غارقون هم وأهلهم فى خيانة اتباع الرسول.. هم غارقون فى مستنقع الدعارة المعلن، فى صابرا وشاتيلا، عار لكل مسلم، ولكل عربى - ولكل إنسان

ياسنوات الإنسانية السوداء، نحن نخرج، نحن نخرج، وحولنا الطبول والموسيقى، والوعود. وبعدنا، طوفان الموت، والانتهاك، والدعارة، والعدم..

ليس للعالم اليوم ضمير.. ولن يكون..

فالإنسان مات ـ الإنسان خرج من بيروت وعبر، ثم مات

اللى هوه

-١-

ـ يابيه..لأ..أنا أم شربات ـ البنت مالهاش دعوة ، أنا يابيه ، عايز أيه؟.. نيابة أروح، لكن شربات لأ.. دى حتى يابيه مخطوبة ، الأسطى عبد العليم خطبها من يومين وأنا وافقت ـ عايز أيه يابيه..؟

ـ اتاخرى ياوليه، ندخل التعريشة دى ، ونشوف مين اللى فيها.

ـ يابيه ـ فى عرضك ـ ده الوقت متأخر ، وصوتنا تسمعه الحارة كلها .. خدنى يابيه ، آداب ، مخدرات ، زى ما أنت عايز .. لكن ماتدخلش التعريشة دلوقت ـ دى شربات كل الدنيا عندى ، يابيه ـ يابيه .

ـ ياولية بالراحة ـ محدش عملك حاجة .

ـ وبنتى يابيه؟

ـ مالناش دعوة بيها ، احنا بندور على المخدرات.

ـ ريحتنى ، ربنا يريح قلبك .. المخدرات جوه يابيه، جوه الحارة ، جوه قوى .. احنا بره يابيه .. بره خالص، مالناش دعوة .. وإحنا يادوب عارقين نجيب اللقمة .. يابيه أبوس رجليك ، فى عرضك.

ـ يا أم شربات ـ أنتم حكايتكم طويلة قوى .. وأنتى لسه خارجة من السجن قريب .. وغرش احنا سايبينك تاكلى عيش..

ـ يابيه، ربنا يخليك .. ربنا يخليكم كلكم .. أنا عارفاكم واحد واحد.. اللى يشخط ، اسكتى يابنت ، أسكت .. أسمك أيه يابنت؟ اقول .. روحى اتلهى هناك يابنت، اتلهى .. يابيه أنا خدامتكم كلكم ـ حتى لما يبعتونى الحجز الصغير ، مانطقتش .. ما أنتم شباب يابيه .. وماله؟ ماهو حقكم برضه .. ويابيه حقكم عليا ، بس قول ، أأمر ـ هوه أنا باتأخر؟ اسأل كل الرجالة .. يقولولك ، أم شربات جدعة يابيه ـ جدعة ـ بس أنا تعبت يابيه ، تعبت ـ وتبت خلاص تبت ـ السجن ودخلته .. والوعد عليا رضيته ..، وقضيته ..، كفاية بقى يا بيه..، لكن مش شربات يا بيه، مش شربات..

ـ أنا مش فاهملك كلام يا ولية.. ممكن تهدى شوية وتكلمينى بالعقل.

ـ أيوه يابيه بالعقل ـ أمال بالعقل يابيه بالعقل ـ ده الأسطى عبدالعليم خطبها يابيه ، وحيتجوزها بسنة الله ورسوله يابيه ..، سيبوها يابيه، ولا بهدلة أمها ..، ولا أتدورى يابت ، واتحركى يابت.. لا يابيه أنا فداها ، خدونى أنا يابيه..

ـ ماقلتلك أنا مش فاهم حاجة ابدا من كلامك .. اسكتى شوية ـ احنا مش قاصدينك أنت .

ـ يابيه .. يابيه ـ أمال أيه يابيه ؟

ـ قولتلك يا أم شربات ـ الناس اللى بتدخل الحارة مساطيل؟

ـ أيوه يابيه مساطيل ، أيوه مساطيل..

ـ طب بيشتروا منين؟ ومن مين؟

ـ آه ، أهو كله إلا ده يابيه .. لا يابيه ، أنا عايشة هنا على باب الحارة فى الخص ده بالقدرة.. اهو الصبح أقلى شوية طعمية.. وبالليل ، أشوى شوية درة .. واللى يشترى طول النهار بسكوتة واللا حتة عسلية تبقى رضا .. مالنا ، وما اللى جوه؟ يابيه جوه احنا مش قده..

ـ طيب ، ماتقوليش ، لكن دلينا ..

ـ دول بيهد لولى العشة .. ولا يبقى فيه طعمية ولا درة .. ولاشربات تعرف تلاقى الهدمة ، ولا محمود وهبة وعادل، وخضرة ـ ياعينى اللى لسه بتحبى ـ يلاقوا اللى يراعيهم ، ويأكلهم ..

ـ يا أم شربات تعبتينى ـ يالله يامخبر انت وهوه ، حاصروا العشة و..

ـ يابيه ، يابيه ، لأ بلاش الليلة دى العشة ـ دى مخطوبة ، شربات خطبها الأسطى عبدالعليم..و

ـ عرفنا ، وقرأ فتحتها .. وبعدين يا أم شربات ، ندخل الخص ونأخدها أداب.. واللاتقولى..؟

ـ لأ أقول يابيه، أقول.. كل العالم مايجيش حاجة فى ضفر شربات ..
دى ياحبة عينى لسه ماشفتش دنيا، غرش هوه الغلب والمقدر ..
واللى مقدر، موعود.. وهو اللى يتوب علينا ، ويستر علينا..

ـ فين ومين يا أم شربات..؟

ـ يابيه ـ شوية كدة وحتدخل عربية كلها شباب.. عربية مفتوحة،
مولعين فيها الكاسيت على الآخر ـ حيدخلم الحارة ، وخليك وراهم ..
وسيب شربات ، وأم شربات ، لحالهم..

ـ ايه العربية دى؟

ـ وانا مالى يابيه .. ناس بتيجى مبسوطة شوية آخر اليل، وتدخل
بعربيتها الحارة، وكل خطوة بمزيكا،

ـ وبيمرم على شربات ؟

ـ يابيه شربات لا ، وأنا مالى يابيه، وأنا مالى..

ـ امال بيقفوا هنا قدام الخص كل ليلة ليه؟

ـ ابدا يابيه ، بيسألونى ، وأدلهم.

ـ حلو .. بيسألوكى عن ايه؟ وبتدليهم على ايه؟

ـ مابلاش يابيه، وتخلينا جدعان ، وننسى سيرة الناس.

ـ أنت نسيتى نفسك ياولية واللا ايه؟

ـ لا يابيه ، ابدا وحياتك ـ بس ينقطع عيشى لو اتكلمت.

ـ تعبت معاكى يا أم شربات ـ نأخد البنت بقى واللا تتكلمى ـ خلصينا ـ

ـ لا ـ لا ـ أبدا ـ البنت شريفة يابيه ـ وحياة الست الطاهرة هيه شريفة يابيه .. دى حتى عيلة، حتى..

ـ بس .. كفاية ياولية اتكلمى ، والا نأخدها ونأخدك ونمشى .. والباقى فى القسم..

ـ حاقولك يابيه وأمرى لله ـ بقى بيت الست حفيظة مليان حناطير .

ـ حناطير؟

ـ أيوه يعنى يابيه ، العربيات مليانة شبان بتيجى الساعة اتنين واللاتلاته .. وكلهم مونونين تمام.. وعلى بيت الست حفيظة ـ المشروب الأول ، والمزاج م الأول، والحناطير على قفى مين يشيل.

ـ برضه حناطير؟

ـ ماهو يابيه، هما زمان كانوا بيخدوهم فى الحناطير ، واللى بيسوق الحنطور سموه (أبو لبن) .. لسه مش فاهم يابيه.؟

ـ دعارة يعنى

ـ وأنا مالى، انا مقلتش حاجة، وربنا أمر بالستر ..

ـ ربنا أمر بالستر على الغلط يا أم شربات؟ .. لاده مش كلام..

ـ وأنا مالى، أنا جاهلة يابيه، معرفش كلام البهوات خالص.

ـ وفين بيت الست حفيظة دى يا أم شربات؟

ـ تالت بيت يابيه على شمالك ، بعد العطفة الاولانية .. خلاص قلتلك .. ياخراب بيتك ياشربات، وخراب بيتك يا أم شربات .. وياخراب..

ـ كفاية ـ فاضل الكيف؟ وده هوه بقى ـ اللى هوه ـ

ـ يعنى لو قلت ؟

ـ حنسيب شربات الليلة دى وحنمشى .. ويخرج الحمار اللى جوه ولا من شاف ولا من درى..

ـ وانا يابيه ، اقعد ازاى بعد كده هنا؟

ـ لا أنتى كنتى هنا قبل كده ، ولا أنتى عارفه أنك حتبقى هنا على طول.. لكن حتستنى يا أم شربات، علشان أحنا عايزينك هنا ـ أسنى ، وأحنا حنغطيكى هنا.

ـ كده يابيه؟

ـ ايوه كده ياأم شربات .. والتخشيبة اللى أنتى عملاها هنا مش أحسن كتير من التخشيبة التانية..لكن أن كنتى عايزاها ، وكانت هيه عجباكى ، خليكى هنا على طول، واحنا أكيد حنحتاجك هنا.

ـ ياكده يابيه ـ يا .

ـ ياهنكمل الليلة ، ونأخدك أنتى وشربات واللى مع شربات.

ـ لا يابيه ، شربات تتجوز بكره والواد يكتب الكتاب بكره ..

ـ طب يا أم شربات ، ربنا يهنيكى بيها .. هيه مالهاش دعوة .. وكويس أنك حتسترى عليها ـ آدى عشرين جنيه من جيبى نقوط

للعروسة من دلوقت ـ وخلى كتب الكتاب بكره زى ماقلتى.

ـ كده يابيه ، ربنا يستر عرضك.

ـ فهمتى بقى، استرى عليها ، وبسرعة .. واللا هتعيش اللى أنتى عشتيه .. وتشوف اللى أنتى شوفتيه .

ـ لا يابيه؛ هى عروسة من بكره،

ـ طيب البيت التانى بقه يا أم شربات ، البيت التانى؟

ـ طب يابيه ـ المره دى، عدى أول حودة فى الحارة والتانية .. وتدخل التالتة.. تبقى وسط الحارة تمام ـ وقدامك البيت على طول.

ـ الله ده بيت المعلم أبو المكارم ، صاحب القهوة.

ـ انا مقلتش حاجة .. اللى ملفوف ، والى مبطط ، واللى مدعوك .. وكله بميزانه .. والميزان وسط البيت ، والحراسة من كل ناحية ـ ولا حد يقدر يهوب.

ـ للدرجة دية.

ـ تقدر تهوب يابيه؟

ـ لا ، هيه دى عايزة كلام.

ـ شفت يابيه ، دول سايبنى هنا فى أول الحارة ، ناضورجية .. أول ماشوف كبسة زى بتاعه سعادتك دى .. أرقع بالصوت وأمسك فيكم، وعقبال ماتسيبونى واسيبكم يبقى كل شىء تمام .. والميزان فص ملح وداب، والصنف فص ملح وداب ، والناضورجية زفة فى

فرح ، وعريس وعروسة ، ومزيكة، وتكرم يابيه..

ـ الليلة مافيش كبسة ، وبكره تجوزى البنت ، وبعدها يحلها الكريم ـ وأنتى دلوقتى عملتى اللى عليكى.

ـ وشربات يابيه؟

ـ إحنا ماشيين اهه..

ـ قصرت رقبتى ، ربنا يطول رقبتها .. لكنى حكم الولد على الوالد، والضنا مايتذلش يابيه.

ـ فاهمك يا أم شربات ، فأهمك ـ ويادعيلك ـ وحاستنا اشرب الشربات بكره.

ـ يابيه .. الكل باصصلى ..

ـ ماتخافيش ، لا النهارده فيه حاجة ولا بكره فيه حاجة .. ولوحد سألك على الكبسة دى ، قولى ، البيه الضابط كان بيتمم عليا ، ما أنتى عليكى مراقبة والا أنتى ناسية؟ تصبحى على خير يا أم شربات..

ـ٢ـ

ساد الوجوم الحارة كلها منذ الصباح الباكر، فقد تناقلت ألسنة كثيرة ماحدث بالأمس بين ضابط المباحث وأم شربات ـ ولا يعرف أحد من أول من نقل أخبار الحديث ـ ولا من الذى تذكر كل ما دار بينهما بالحرف الواحد.. فقط استيقظت (الحارة) كلها على حديث أم شربات وكلامها مع ضابط المباحث ليلة أمس.

وقالت الحاجة فكيهة ، وهى تضع طبق الفول أمام المعلم علوانى.

ـ سكتناله والله، ودخل بحماره.

قال المعلم علوانى وهو يشد نفسا من الشيشة المعطرة يعدل مزاجه عند الصباح وقبل الإفطار:

ـ بقى الولية دى يطلع منها ده كله ـ ياسبحان الله .. تفتكره موسى ، يطلع إبليس ..

اعتدلت الحاجة فكيهة فى جلستها ، وهى تتربع أمامه ، وأمام الطبلية المرصوصة بكل أطباق الإفطار ، من فول وبيض وطعمية وسلاطه ، وبليلة ، وجبنة وزيتون ـ المعلم يحب الجبنة والزيتون فى الإفطار ، مهما كانت الطبلية ملانة بغيرهما من الطعام ـ ومعهما الحلاوة الطحينية ، التى نسيتها هى هذا الصباح، كما تتعمد أن تنساها فى أكثر من صباح ـ ولكن بصة المعلم علوانى ذكرها بها، وهو ينحى مبسم الشيشة لحظات ينفث فيها الدخان من منخاريه وفمه ويصيح:

ـ فين الحلاوة الطحينية ياولية؟ واللا فاكره الأنفاس دى تهدى من غيرها ـ واللا ايه بقى؟ كل شيء اتلخبط ، ومحدش عارف ايه فى ايه.. ولا مين فى مين..

قالت الحاجة فكيهة وهى تصب الشاى الساخن ، ينبعث بخاره من الكوب أمام المعلم:

ـ احنا ولايه ياحاج.. وبرضه كله بثوابه .. واللى يستر على غيره ربنا يستر عليه.

فاعتدل المعلم علواني - ونحى مبسم الشيشة من فمه لينفث آخر دفعات الدخان الباقى فيها ، ومسح المبسم بيده، ثم وضعه فوق الحافة النحاسية للشيشة، وقال:

ـ بقى الحكاية كدة؟ طب وحياة قبر الرسول ، دى وليه شيطانة ـ يعنى الحكاية صحيح..؟

قالت الحاجه فكيهة:

ـ الستر يامعلم .. ربنا أمر بالستر..

تنهد المعلم علوانى ومد يده إلى الأطباق المرصوصة أمامه فوق الطبلية ، وهو يجيل عينيه الشرهتين فيها:

ـ أصل أنا أحب الكلام الدوغرى..

وامتدت يده بسرعة ، تنقل الطعام إلى فمه ، متنقله بين طبق وطبق، وهو يحشو فمه، ويمضغ ويبلع.. ويعود فيحشو فمه من جديد. ويده طالعة نازلة ، من الطبلية إلى فمه ، فى رتابه وسرعة وحب.. وأخذت الحاجة فكيهة ترقبه فى صمت ، وفوق شفتيها ابتسامة غامضة - وسرعان ما انفرجت أساريرها وهى تسمع الكلمة التى كانت تترقبها منذ بدأت جلستها ، من المعلم .. وكانت تسوق الحديث سوقا ليقولها - اذ مسح المعلم علوانى يده فى الفوطة التى مدت يدها بها إليه ، وهو يتجشأ ، ويمر بكفيه على بطنه العريضة الممتدة أمامه، ويعتدل فى جلسته ، ويقول:

ـ قصر الكلام ، الوليه دى لازم تمشى من الحارة .. دى زودتها قوى - ودلوقت قبل بكره ..

أطرقت الحاجه فكيهة برأسها ، ثم ازدادت ابتسامتها خبثا وهي تقول :

- دلوقت ايه وبكره ايه .. دي النهارده حتجوز شربات .

- تجوز شربات؟ - طب ماتجوز شربات - وده يبقى ايه زيادة واللا نقص ..؟ هوه عمر الرايب يبقى حليب، واللا ايه ياحاجة؟ .. ولعى الشيشة أمال ، وسيبي الباقي عليه .. نهارها النهارده مش فايت .. وولعت الحاجة الشيشة ، ومضى المعلم يشد في أنفاس الشيشة، ويصاعدها دخانا كثيفا في سماء الغرفة، والابتسامة الخبيثة تزداد اتساعا في وجه الحاجة فكيهة .. وهي تتحرك بحركة رتيبة بين المنقد ، والشيشه ، وفي يدها الماشة .. والمعلم يكركر الشيشة .. وهي تضع فوقها (الحتة) ثم تضع الفحم، واليوم يمضي ، وكل صخب العالم في الخارج يختفي ويذوب..

-٣-

وسط كل الهمسات المتناقلة من فم إلى فم ، ومن مندرة إلى مندرة ، أصرت أم شربات أن يتم زفاف شربات، حتى لو أخرجوها من الحارة .. حتى لو طردوها طردا من الحارة .. فهي قد اعطت كلمة للأسطى عبدالعليم السباك.. ماله الاسطى عبدالعليم؟ كسيب ولا كل الأسطوات .. كسيب، ومالي هدومه كمان.. وهو شايف وعارف ، ايوه عارف أن البنت كسيبة برضه.. امال..؟ وشباب وجمال .. وتربيتي .. امال..؟ واحضرت كرسيين من دكان عم على المجاور للتعريشة الخشبية التى تعيش فيها : ووضعتهما أمام التعريشة.. ومضت تزغرد في الحارة

كلها، وهى تعلن عن زواج شربات والاسطى عبدالعليم شيخ السباكين كلهم ـ واسطى الاسطوات .. مقاول وسباك وباشمهندس كمان .. والبنت شربات بنتكم كلكم ، ومالهاش غيركم ـ امال ـ أنتم برضه الجيران ، والصحاب ، والعزوة .. وتشرفونا ، وتفرحونا .. وتفرحوا معانا .. امال؟ ما احنا أهل..

ثم تفتر حماستها كلما طالعتها النظرات الباهتة فى العيون التى تتعقب حركتها ، وصراخها ، ورقصها، فى برود وصمت ..

وبدأت تفقد حماسها تدريجيا .. لماذا هذه النظرات؟ هم يحقدون على شربات .. عندهم بنات أكبر منها بكثير ، ولا أحد تقدم للزواج منهن .. نعم ، هو الحقد على شربات ، والحقد على زواج شربات .. وأخذت تزغرد وترقص أمام منزل الست فكيهة وهى تعلن دعوتها للكل أن يشاركوها فى فرحتها بشربات والأسطى عبدالعليم .. ولم تخرج الست فكيهة إلى البلكونة ، ولم تسأل عنها .. وساد البيت فى مواجهتها الصمت والسكون .. وزغردت مره أخرى ، وتلفتت حولها .. فلم تجد إلا الصبية الصغار من الصبيان والبنات الذين تبعوها منذ خرجت من التعريشة الخشبية التى تسكنها فى أخر الحارة، وفى كل تجوالها ، وحتى الآن .. وملأت عينيها دموع ، أسرعت تبتلعها وتغض بها وتزغرد من جديد.

هى تعرف أن أم فكيهة لا تحب الأسطى عبدالعليم، فهى التى اتهمته بأنه غشاش ولص، وأنه خرب الذمة، يأخذ دائما أكثر من حقه ،

ويسرق المواسير الصالحة ليركب مكانها مواسير مهترئة صدئة ولا قيمة لها.. ويغالى فى ثمنها ، يخدع كل من يتعامل معهم ـ ولكنها غلطانة ـ الست أم فكيهة غلطانة ـ فالاسطى عبدالعليم راجل دوغرى .. أليس هو الذى تقدم للزواج من شربات..؟ وسيتزوجها اليوم.. وسيحضر إلى الخص الخشبى بعد ساعة أو أقل ليكتب كتابه على شربات ـ لا ، هوه ياناس سيد الرجالة، وباشمهندس ومقاول كمان، ومضت تصرخ وهى تردد كل الكلمات التى ترد إلى ذهنها .. وتحول صراخها إلى زغاريد ـ ثم إلى لعنات .. وأخذت تصيح مولولة:

ـ اللى يكرهوه يموتم .. اللى يكرهم شربات يموتم .. اللى يكرهونى يموتم .. ايه يعنى؟ محدش قدكم ـ ما أنا بجرى على العيال وحدى ـ ايه يعنى؟ ما أنا قد ميت راجل .. بياكلم ويعيشم، وأنا وحدى ـ ياناس ـ دى بنتى حتتجوز ، أنا سترت عليكم ، استروا عليا..

ثم صمت والدموع فى عينيها .. ومضت منحنية تعود إلى الخص الخشبى الذى خرجت منه فى حسرة وصمت.. والصبية يحوطونها ، ويمشون وراءها ، بلا كلمة ، ولاصوت ..

ـ ٤ ـ

حين عادت إلى مدخل الحارة والخص الخشبى ، وجدت الكرسيين فى مكانهما ، ولا أحد حولهما ..، ولا شىء يعنى أن هناك فرحا ، وأن هناك عروسا .. أين ذهب الجميع؟ هى لا تعرف .. فقط هى وحدها ، والكرسيان وحدهما .. ومشت تحنى الظهر وهى تطرق باب

العشة الخشبية التى تشغلها الآن شربات منذ الصباح الباكر .. تستحم، وتتزين ، وتستعد لهذا اليوم الكبير فى حياتها ، فى حياتهما معا، فى حياة الأولاد الصغار ، فى حياة الشقاء والعناء الذى تمارسه كل صباح ، وطوال اليوم ... وطرقت الباب الخشبى المهتز ، وفى عينيها دموع تريد أن تخفيها وتكتمها .. وهمست فى صوت متحشرج أعياه طول الصراخ والزغاريد واللعنات :

- أفتحى ياشربات ، أنا أمك حبيبتك ، واليوم يوم فرحتك، وفرحة أمك ، أفتحى ياشربات ..

والتفتت وراءها ، لا أحد الا مجموعة الصبية من بنات وصبيان ، ينظرون جميعا إليها فى بلاهة وانتظار - وصرخت :

- يقول أفتحى ياشربات.

وفتحت شربات وطالعتها رائحة (الكلونيا) التى اعطتها لها، ولم تستطع أن تتبين ملامحها من فتحة الباب الضيقة .. ففتحت الباب على مصراعيه .. وأمامها كانت شربات ، حلم حياتها ووجودها ، مزينة - معطرة ، جميلة كالجمال نفسه ، حلوة كالحلاوة التى يتحاكون بها..

وصاحت وهى تندفع نحوها وتحتضنها :

- شربات ..

ودخلت البنت فى حضنها ، ورائحة الصابون المعطر تفوح من ملابسها ، ورائحة الكولونيا تفوح من جسدها ، وهمست :

- مبروك ياشربات ، مبروك ، العزبة كلها فرحانة لفرحك ، والكل بيهنيكي .. مبروك ياشربات - مبروك - العريس قرب يجى ، وحأعملك الفرح اللى هوه -

اهتز جسد شربات فى حضنها ، والبنت تبكى فى صمت ..

قالت وهي تخفى دموعها :

- بالله ياشربات ، أفردى شعرك بقى، عريسك زمانه جى..

-٥-

وقفت السيارة النصف نقل ، أمام باب الحارة عند البناءات الخشبية عند سور المترو .. ونزل الأسطى عبدالعليم ومعه الأسطى فتحى من باب السيارة الأمامى ، وفى يد الأسطى عبدالعليم بوكيه ورد ذابل ، اشتراه من الصباح ، وظل يحمله حتى ذبل ورده .. ولكنه الآن يحمله إلى عروسه .. وقال الأسطى فتحى ، الذى لم يكن بعد، أكثر من صبى للأسطى عبدالعليم:

- هوه كده المكان تمام يا أسطى..

تلفت الأسطى عبدالعليم حوله، فضايقته الياقة المنشاة التى يرتديها فوق قميصه .. ومد يده يزيحها ، ثم عاد يعدلها ، ثم عاد يزيحها .. وهو يحس أنه يختنق فى البدلة التى فصلها له الأسطى شلبى خصيصا، وأصرأن يرتدى معها هذا القميص الملعون، بياقته المنشاة، ووسطها الكرافته الزاعقة الألوان ، فهو فى عرس، وهذا فرح .. وقال فى ضيق وتعال لصبيه فتحى:

ـ تمام يا أسطى ، هوه المكان ، ما أنت شايف النور الكبير ده ، يبقى هوه المكان ..

وكان النور الكبير الذى يتحدث عنه ، لمبة كهربائية مبهرة معلقة فوق الخص الخشبى الذى تسكنه أم شربات ـ وتلفت حوله فى قلق ، وفجأة خرجت أم شربات من باب الخص الخشبى ، وأسرعت نحوه وهى تصيح:

ـ مرحب ، يامرحب بالعريس ، سيد العرسان .

ثم زغردت ـ زغردت ، وزغردت ـ وقادته إلى المقعدين يستندان إلى الفيلا المجاورة والمواجهة للخص، وهى تصيح وسط زغاريدها:

ـ العريس وصل ياولاد.. ياهناكى ياشربات ياسعدك ياشربات .. ياأهلا وسهلا بعريسنا ، ونوراتنا . . وأسرعت تجلسه على كرسى من الكرسيين ووراءه الصبى فتحى ، الذى أسرع يجلس إلى جواره على الكرسى الوحيد الثانى الشاغر ، أسرعت أم شربات إليه، وجذبته من قميصه وهى تقول :

– ده مش مكانك، أنت مش صاحبه؟

قال مدهوشا ومطرقا:

– طبعا ده صاحبى، والأسطى بتاعى، وأخويا الكبير، ونوارة الأسطوات كلها، وعريس الليلة – أمال

اسكتته برفق كلمات صارخة:

- يبـقى تسكت، وتقف وراه، الكرسى ده للعـروسـة.. وأنت صـاحب العريس، تقف ورا العريس.. ثم اسرعت تجرى إلى الخص الخشبى، وعادت وفى يدها طبلة ، وجعلت تدق عليها وتصيح:

- صالوا على النبى ، صالوا .

ولم يجيبها أحد، فصاحت فى الصبى فتحى الذى وقف أمام كرسى معلمه وهو ينضح عرقا :

- رد ورايا أمال ..

وعادت تصيح وهى تدق على الطبلة:

- صالوا على النبى صالوا..

وقال فتحى:

- صالوا على النبى صالوا

والصبيان والبنات التفوا يصيحون :

- صالوا على النبى على صالوا

وزغردت أم شربات ، وأخذت تدق على الطبلة فى عنف وإصرار ، وهى تتراقص وتصيح:

- صالوا على النبى صالوا، والعريس وردة ، والعروسة وردة تستهلوا .. صلوا على النبى صالوا..

لم يجد فتحى الواقف خلف كرسى العريس مفرا من أن يرد وحده:

ـ صالوا على النبى صالوا

وأخذ الحماس الأولاد والصبيان ـ ولم يكونوا يزيدون عن الخمسة ساقهم الفضول ، ولم تستطع أوامر أمهاتهم أن تحرمهم عن هذه الجلسة عند نهاية الحارة، حيث تضىء اللمبة المبهرة ، ويجلس العريس على كرسي ووراءه رجل يغنى ويصيح ، وأمامه أم شربات تزغرد وتطبل وحدها ، فصاحوا خلف الأسطى فتحى فى خفوت أول الأمر:

ـ صالوا على النبى صالوا

وصاحت أم شربات وهى تضرب على الطبلة

ـ والعريس قيمة ، والعروسة هيه نوره وزينته ، وصالوا ..

ومع ايقاع الطبلة ردد الأولاد وردد الصبى فتحى ، وراءها قولها ..

ولا أحد يا أم شربات ، وحدك والطبلة أنت تدقينها وحدك .. والعريس يجلس وحده .. وهذا الذى وراءه صبيه ، وهما وحدهما .. وأنت وحدك .. والعيال تقلص عددهم .. ونادت كل أم ولدها ، فلم يبق الا التمردين الفضوليين وحدهم ـ وصاحت :

ـ العروسة ياعريس.

وأسرعت تجرى نحو التعريشة الخشبية وهى تصيح:

ـ عرس مبارك يا أولاد ، عرس مبارك ياولاد ، صالوا على النبى صالوا

وحين وصلت إلى باب التعريشة الخشبية صاحت:

ـ ياشربات عريسك هنا ، ياللا ياشربات.

وخرجت شربات فى الفستان والتسريحة الجديدة لشعرها وهى تبتسم فى خفر وحياء ..

يا ألهى ، ماكل هذا الجمال، من يصدق أنها أبنتى أنا ـ جمالها لا أملكه ـ مشيتها لا أعرفها .. عروسة ياناس ، عروسة ـ أتمخطرى ياحلوة ، تعالى هنا ، جنب عريسك...

وقادت شربات إلى الكرسى الأخر الشاغر ، وهى تزغرد ، وترقص وتغنى ، وتدق على الطبلة، وحدها ـ وحدها .. وحدها وتدق ، وتدق، وتصيح :

ـ صالوا على النبى صالوا.

ولا يرد عليها سوى الأسطى فتحى ، وولد وبنت هم كل البقية الباقية من الحارة ، وتمسح دموعها وهى تزغرد وتطبل وتغنى..

كان الأسطى عبدالعليم قد أعطى بوكيه الورد الذابل لعروسه ، ومضى ينظر إلى الفراغ أمامه .. ينتهى بالتعريشة الخشبية التى هى مسكن عروسه وأمها ... والدنيا حر يا أولاد، وهناك ناموسة أو بقة فى الياقة تصر على قرصه باستمرار .. هى مرة فى قفاه ، وهى مرة فى عنقه عند اليمين ، ومرة عند اليسار .. وتصبب العرق من جبينه ، وضاق بكل شىء وقال فتحى:

ـ كفاية يا أسطى ، نقوم نكمل عندنا بقى..

تلفت الاسطى عبد العليم حوله، ولم يجد أحدا ، غير الام الزاعقة أمامه .. ومر بيده على أسفل الياقة يبعد البقة التى تصر على قرصه بعنف ..، وقام وهو يعدل البدلة الجديدة التى لاتنطبق تماما على جسده المترهل ، ومد يده إلى عروسه ، وهو يقول:

ـ ياللا ياشربات بينا ، عندى المأذون مستنى نكتب الكتاب ، ونتجوز

وسمعته أم شربات فزغردت ، وصاحت :

ـ نعم الكلام يا أسطى ، نروح عندك .. أمال ، نروح عندك ، ونكتب الكتاب ..

مد يده إلى شربات فقامت من كرسيها إلى جواره ، واحتضنت يده فى رضا ، وأحس بدفء يدها ، فأهتز جسده كله نشوة ، وقال :

ـ نقوم ، المأذون مستنى .

وأخذ بيد شربات التى سارت معه على خجل واستحياء وهى تتأود، ومضى بها إلى العربة النصف نقل لتجلس إلى جوار السائق وهو إلى جوارها ، وجاءت أم شربات مسرعة ، لتجلس إلى جوار الكل وهى تزغرد ، وتغنى وتصرخ وتصيح :

ـ صالوا على النبى صالوا.

-٦-

مصمصت الست فكيهة بشفتيها فى حسرة وهى تقول :

ـ أهى البنت مشيت مع جوزها يامعلم، وهيكتبوا الكتاب .. واحنا معملناس حاجة ..

نفث المعلم علوانى الدخان من مبسم شيشته ، ومر على بطنه بكفه فى رقة ، وهو يقول :

ـ هوه حد عبرها ، متفهمى بقى..

قالت الحاجة فكيهة :

ـ كنت هتجنن ، وهيه واقفه قدام بابنا تصرخ ، وتزغرد ، وتغنى ، وترقص ..

أخرج المعلم علوانى نفسا من فمه وأنفه ، وهو يقول :

ـ والحكايه ايه ؟ .. لاحد معاها .. ولا حد عبرها .. وسابت البيت ، ومشيت ..

قالت الحاجة فكيهة :

ـ لكن البنت هيه زفتها ، وعريسها خدها ، وحتتجوز ..

ضحك المعلم علوانى وهو يقول :

ـ ما قلتلك، البنت تتجوز ، أيوه محدش معترض .. لكه هيه تستنى بعد اللى قالته.؟ هوه ده الكلام..

زحفت الحاجة فكيهة بجسدها السمين إلى تحت أقدام المعلم علوانى ، وهى تهمس :

ـ يعنى يامعلم ، هيه مش حتستنا

ضحك المعلم علوانى، وربت على رأس الحاجة فكيهة وهو يقول:

- مش قلت لك يا وليـة، اللى يصونا نصونه، واللى يبعنا نبـيعـه، والصبر طيب..

-٧-

اجتـاح الحـارة خوف رهيب.. عـربات وعـربات، وجنود وجنود.. وحوصر كل منفذ فى للحارة.. وتقدمت جنود تحمل أسلحتها حذرة، وطوقت كل البيـوت.. ومن بيت حـاول أن يقاوم، سـقط جـريحـان.. وضبطت موازين ومكاييل.. وكميات من المخدرات.. ومن بيت حاول أن يعترض، أصيب فتوة، وآخر، بكدمات وكسور فى الصدر والوجه - وسيقت مجموعة من الفتيات يصرخن ويولولن.. ولكنهن يصعدن إلى (البوكس) فى تعاسة وبأس..

ولم يخل بيت فى الحـارة من صـراخ.. فـفى بيت سـلاح غـيـر مـرخص، وفى بيت هارب من أحكام قـديمة يجـد المأوى، وفى بيت مصنع لذخائر وقنابل ومفرقعات..

كل شيء جمـعته الحملة، وقادها الضابط الذى يعرف كل شيء.. وصدق الجمـيع أن أم شربات قالت كل شـيء، ما تعرفه ومالم تعرفه باليقين، وإنما حكت عنه بالظن..

ولم يغـرب اليوم، إلا وأعـداد غفـيرة من سكان الحـارة يساقـون إلى سيارات سوداء داكنة تنتظر الوافدين.. والضبـاط يسوقـون الكل فى إصرار وصمت وتحد.. ودخل المعلم علوانـى السيارة وهو يسب ويلعن، ويقول:

ـ كل ده من الغجرية دى، أخدناها جوانا، وسبناها تعيش على باب الحارة.. تخرب بيتنا كده، حقيقى، تفتكره موسى يطلع شيطان..

وتصرخ الحاجة فكيهة من بلكونة بيتها:

ـ يا سبعى، يا جملى..

والكل واجم وحزين، وكل السباع والجمال فى الحارة كلها ركبوا السيارات السوداء المغلقة، تمضى بهم إلى حيث السؤال والجواب.. وإلى حيث لا يعرف أحد أين المصير..

ـ ٨ ـ

بعد أذان العشاء بقليل ، وقفت السيارة النصف نقل على مشارف الحارة، وعند أول الناصية المواجهة للميدان ، ونزلت منها أم شربات ترقص ، وهى تحمل فى يدها رقعة ثوب عريضة تتوسطها بقعة حمراء ، وكانت تحركها فوق رأسها وهى ترقص وتغنى:

ـ قولوا لابوها يتهنا ، دى البنت شرف يتغنى .. قولوا لعمها يتعشى ، دى البنت وسط الحور تتمشى .. ترقص وتغنى ، وترقص وتغنى.

وفجأة وجدت نفسها وحدها ، لا أحد ينتظرها ، ولا أحد يشاهدها ، ولا أحد يسمعها .. انزلت الثوب بين يديها ونظرت حولها .. الصمت والوجوم ولا شىء .. وفجأة اندفع صوت صارخ يقول :

ـ حريقة ..

وحين التفتت، كان كل الخص الخشبى شعلة من نار .. صرخت ، وأسرعت نحو الخص ، ولكن لهيب النار أوقفها ، وصاحت :

ـ ياناس .. النار ، النار ـ ياناس .

الكل ينظرون في صمت ، والنار تأكل الخص الخشبي .. ولا أحد يتحرك ، والنار تأكل كل شيء .. تأكل كل شيء .. وهي تجري وتصرخ، ولا أحد ، لا أحد ، إلا النار تكل الخص الخشبي ، والدخان يغمرها ، ويغشي عينيها .. وتركع على ركبتيها ، وتتكور .. ثم تبكي في حرقة وتعاسة .. والنار تلتهم كل الخص .. حتى يتهاوى ويتحول إلى دخان وهباء ، ودخان أزرق ، وتضرب كفا بكف ، وهي تحنو التراب على رأسها وتشير إلى الحريق وتقول :

ــ النار .. النار .. ضاع الخص .. ضاع

ومن خلفها جاء صوت أجش لإنسان مجهول من أبناء الحارة يقو ل:

ـ أدي الجزاء اللي هوه ..

تلفتت حولها فلم تر أحدا وعاد الصوت من الناحية الأخرى يردد .

ـ اللي هوه

وراحت برأسها تدور وأنها تقع .. وتقع .. وضحكت وفجأة زغردت وصاحت :

ـ قولوا لأبوها يتهني ، دي البنت شرف يتغني .. قولوا لعمها يتعشي، دي البنت وسط الحور تتمشي ثم صمتت وهي تحملق في البقايا المحترقة لبيت كان يوما يأويها ، وأسرع أولادها نحوها عرايا .. محمود وهبة وعادل ، وخضرة تزحف عريانة ، تكنس الأرض بجسدها الصغير النحاسي نحو أمها ـ وانحنت أم شربات إلى الأرض ووضعت كفيها على عينيها الباكيتين وهي تهمس :

ـ ياخراب بيتك يا أم شربات ، دا ده الخراب اللي هوه .

والموج ينكسر عند الشاطىء

-١-

ـ اتحلم؟

ـ وهل تملك إلا إن تحلم، والحلم، أملنا العظيم، وعذابنا العظيم

ـ أتحلم..؟

ـ وهل الحلم إلا مابقى لنا بعد كل عذابات ما عشناه

أسندت رأسها إلى صدره وهمست

ـ أحبك، ولكنى أخافك، وأخاف أن تخون.

وصمت.. لم يتكلم، فقط ضم رأسها بعنف إلى صدره وراح فى سبات عظيم.

-٢-

الشك أخطبوط له ألف ذراع يلف ذراعه الملىء بالصمامات الماصة حول جسد، فإذا الجسد لعبة بين يديه وإذا الجسد مزقا بين أنيابه، وإذا

الكل ضاع ـ حين تردد، حين شك، حين اتاح لأزذع الأخطبوط الواحده من الألف بعد الواحدة أن تلتف حوله، أن تلاشيه، أن تضيع كل شيء فيه.. أن تمتصه، وأن تستنزف رحيقه، ويضيع كل شيء فيه.

ـ٣ـ

ـ اتحسب إنك تستطيع أن تنسى؟

ـ احسب أن الحب يغفر، فإن غفر فهو النسيان

ـ أى نسيان؟ إن وقع الأقدام يدق يدق كأنه شيء ثابت مقيم لاينتهى، حتى ليتحول إلى طبول جارفة لاتبقى أى نغم الا نغم الوقع الاليم والحزين.

وفى ظل كل هذا ينسى؟

ـ كيف أنسي ونبضها حين يرتبط بقلبى، يذكرنى بنبضها حين ارتبط بقلب أحب وخفق قلبها نفس الخفقات، وأحس نفس اللهفات.. ومات، حين مات ماعندى من ألم، وبدأ حين بدأ ماعندى من عطاء، وسعد كما سعد حين سعد ماعندى من وجود.

ـ ألا تنسى..؟

ـ أريد أريد أن أنسى، ولكن كل شيء يقلقنى بصوره، ورؤاه بأهوائه، وروائحه وعطاءاته، وإنه الحقيقة كان..

ـ طريق كله عناء ولكن عذاب ولا عطاء فيه، إلا معنى الغدر معنى النسيان ومعنى التجدد الدائم، والاستعداد الكامل لغدر جديد، ونسيان جديد.

ـ واسمع منك، وأهيل التراب على وجودى وأدفن رأسى فى الرمال وأنتظر.

ـ٤ـ

ويبقى إنها تحيلك إلى أمثولة، إلى ضحكة عابرة، عبرت وسط ضحكات انطلقت من قلبها عبر حياتها، وعبر وجودها، وعبر كل حياة عاشتها، وعبر كل وجود ارتبطت به.

ويبقى إنك ألعوبة اليوم المتاح، صدى لالعوبات كانت ومضت، عشقت صاحبة الألعوبات ومضت، احبت ومضت، ضحكت ومضت، وقدمت كل ماعند ها ومضت، وإنها تعيش رهن عذاب كل هؤلاء.

وإنها حين عاشتهم خانتهم، وحين خانتهم انهتهم وضاعوا، فهى الوجود الأعظم، يمتص كل وجود، وهى الكيان الأقوى يأكل كل الكيانات المهتزة، المحبة الممزقة المحبة التى لاترجو من وجودها إلا لحظة الغفران والحب.... سبحان الله العظيم.

ـ٥ـ

ـ وتقول إن الحب كان

ـ وأقول إن الحب ما كان

ـ ونحن الآن؟

ـ ظل حب قديم، ظل حلم قديم ـ عاش حين الصراع هو رغبة التفوق، رغبة النصر، رغبة هزيمة الحب القديم.. وحين هزمناه

استمتعنا بأنا هزمناه وقهرناه، وإننا نعيش رغم كل عطاءاته، وإننا نبدأ العصر الجديد، الحب الجديد، دون خطاياه، هذا الحب القديم الذى كناه.

ـ وتقول أن الحب كان؟

ـ وأقول أن الحب ماكان

ـ ياتعسك أحقا الحب كان؟

ـ والحب يخون حين يقارن، حين يضع الأشياء أمام الأشياء، حين يضع التجربة أمام التجربة ـ حين يخون حبه الآن فى تذكر حبه القديم، حين يربط حبه بمعنى الحب القديم.

ـ اتنسى؟

ـ حين ينتصر الحب ليقهر الحب القديم.

ـ فيكون حبا قهر، ولكنه أبدا حب موجود.

ـ ياعذابك حين تصر أن الحب القديم حب موجود.

ـ ياعذابى حين أحس أن الكذب عاشت، وكانت، وأعطت وجودها للكذب. إن هى صدقت ما أنا إلا واحد من هذه الأكاذيب، الصادقة، المعبرة، المخلصة الدائمة، ياتعس الكلام العظيم.. دفء الكلمات كذب ـ دفء الكلمات المهتزة يبرر الوجود، كذب.. وتنهمر الثلوج ويعيش الكذب..

ـ أكل دفء عطائها كذب،.. ياتعسك أذن..

ـ وياتعسى إذن وياتعسى أبدا ودائما.

-٦-

بعض النفوس ولدت، لتعيش الشك، ولتخلق الشك، ولتكون من الشك شبكات تمتص رحيق أى فراشة حب مرت وعبرت، فطالها حبل من عنكبوت الظلام، واجتذبها، واحتواها، ثم مص رحيقها، وجفاها.. فإذا هى همل من الهمل، وإذا هى بقايا من البقايا، ولايذكر أحد من كانت وكيف كانت، ولم كانت، وبموت حب لم يولد أبدا ـ ولم ير النور.

-٧-

ـ ومعنى أن نعيش؟

ـ ليس بعيدا عن معنى أن نموت.. فالبداية نهاية.. النهاية لاتحكى إلا لحظة توقف البـــداية عن العطاء.. وعن الأمل، وعن الألم وعن الوجود.

ـ فيا تعسا للحظات يتساوى فيها كل شىء بكل بشىء، ويصبح العدم هو الوجود، ويصبح الوجود هو العدم.

-٨-

ـ أنت من الوحدة والقلق تصنع كلاما

ـ وأنا من الوحدة والقلق أصنع وجودا

ـ فالوحدة والقلق وجود

ـ الوحدة والقلق وجود ـ ولكنه وجود كالعدم

ـ والكلام الذى نصنعه من الوحدة والقلق؟

ـ وهو كلام يمتزج فيه الوجود بالعدم.

ـ ٩ ـ

شاه حب تنكر حتى على وجوده، لان وجوده.. معنى أن نكسب إنسانا، أن نكسب عطاءا أن نكسب عمقا، وثراء وبهجة.

ـ شاه حب تكرر حتى تشابه وجوده، بوجوده فهو هو، فى كل مرة، نفس ماتجده فى هذه المرة.. أن نرغب، أن نعايش، أن تتطلع أن نحصل، أن نحب.. والحب من كل هذا، يرقب من بعيد، عبث المعنى، وضياع الوجود ـ وإن كل شيء متكرر ـ يحدث ويمر.. ثم يمضى بلا وقع أقدام، بلا آثار فى الرمال، بلا بقايا تؤكد أنه يوما كان هنا.. إنه يوما كان حبا أو إنه كان..

ـ ١٠ ـ

ـ وتفيق؟

ـ وهل كتب لنا أن نفيق؟

ـ قدر هو إذن أن نعيش نفس القلق، أن نحيا نفس العناء، أن نحس نفس الاشتهاء، إن نستسلم لنفس الضعف، أن نغرق فى نفس البحر، أن نموت من جديد.

ـ ولن تفيق؟

ـ وهل كتب لنا أبداً أن لانفيق؟

-١١-

ـ وهل يعيش العشق بعدنا

ـ عاش ويعيش

ـ وهل يعيش العذاب مثلنا

ـ عاش وكان ودمر.. ويعيش

ـ وهل يحب الحب ما أحببنا؟

ـ ما أحببتم أحببناه منذ خلقنا، ومنذ كان الوجود.. ولكن الحب الحب فى أيديكم مات ـ فما عشتم العشق حين عشقناه، ولا عانيتهم العذاب كما عانيناه، ولا كرستم وجودكم كما فهمنا فيه معنى أن نحب، فله ولاستمراره كرسناه..

ـ وأقول

ـ اصمت ولاتتكلم.. فالقول من كثرة ماتكرر عرفناه، وجفونا، وكرهنا تكراره، ومللناه فالصمت ياحبى الصمت، الصمت.. فلا رؤيا بعده ولا مغزى اللاه.

-١٢-

ـ والرجل الذى قدم العار والخدعة

ـ رضيناه لإنه قدم مع العار، معنى أن يكون حبا جديدا، مغايرا مستفزا لكل الركود الذى عشناه..

ـ والرجل الذى قدم العار والخدعة.

ـ هو الرجل الذى باع لنا معنى التحدى فاشتريناه ـ باع لنا معنى الانتقام فرضيناه ـ باع لنا معنى أن نبتذل أنفسنا لننتقم من كل معانى الاحترام فقبلناه.

ـ والرجل الذى قدم معنى العار والخدعة

ـ وماذا كان إلا العار والخدعة.. وحين تعرينا أمامه لم يبق لنا إلا أن نكون نحن العار والخدعة.. فكنا العار والخدعة، وكنا العار والخدعة.

ـ ١٣ ـ

شاه رجل وجه وجهه إلى أسافله، فهم يعد لايرى إلا عطاء أسافله ولم يعد يشم إلاريحها، ولم يعد يعيش إلا فى وجودها، فكان هو كل أسافلة..

ـ ١٤ ـ

أنترى حتى يموت المعنى فينا..؟

ـ ترى حتى مات الحب فينا، فكيف يعيش المعنى فينا؟

ـ ١٥ ـ

ـ أما أمل أن ترى النور؟

ـ النور فى داخلنا فكيف لانرى النور؟

ـ أما أمل أن ترى النور؟

ـ إن لم ننظر إلى داخلنا فلن نرى النور، ونحن لا ننظر أبدا إلى داخلنا.. فكيف سنرى النور؟

ـ أما أمل أن ترى النور؟

ـ نسأل عن النور، ونحن هو النور.. فكيف نرى ما ليس إلا نورنا؟

ـ أما أمل أن ترى النور؟

ـ تاه المعنى فنحن لانريد أن نفهم، ولا أن نفتح عيوننا فنرى النور.. النور غاب..

ـ أما أمل أن نرى النور؟

ـ لن نرى أنفسنا، أعماق وجودنا، من نحن، ومن نكون.. فابدا لن ترى النور..

ـ ١٦ ـ

ـ صفحة فتحها الزمن

ـ صفحة كتبنا فيها وجودنا حروفا تجسد الزمن

ـ والزمن مر ومعه مرت أعمار جسدت الزمن، وحين عبرت باخ الزمن، وآن لنا أن نستريح، ونعبرها، كما عبرها كل من أحبنا.. وصفحة نطويها بأيدينا قبل أن يطويها الزمن.

رسالة من القبر

أكتب لكم من القبر. وليس هذا معجزا لى فأنا حديدى الإرادة، قوى الأعصاب ثابت الجنان، رابط الجأش.. وأترك لأى واحد من الصحفيين اللامعين وغير اللامعين أن يضعوا لى من الأوصاف ما يشاءون، فأنا السنانيرى الرجل الذى ارتكب المعجزة التى لم يقدم عليها أحد من قبل.. الرجل الذى كتب على باب زنزانته قبل أن يقتل نفسه: «هذا أفضل من الإضرار بغيرى».. ثم أنتحرت.. أى إننى الوحيد فى العالم الذى انتحر، لايأسا، ولا هروبا، ولاهلعا من الحياة وما فيها ومن فيها، وإنما خوفا على الغير، الذى أضره بوجودى.. وأوذيه بتلك الأنفاس التى أسرقها من هواء السجن، وبتلك اللقيمات التى أبتلعها من طعام الصدقة الذى يرمى إلى فى الزانزانة..

- جاء فى مقال فكرة لمصطفى أمين أن تقرير النيابة الذى أطلعه عليه النائب العام جاء فيه «على باب الزنزانة المعدنى وجدت العبارة

المحفورة ،هذا أفضل من الإضرار بغيرى، وساعتى هدية لتوتو، وإنا لله وإنا إليه راجعون..

والتوقيع السنانيرى بتاريخ ١٤٠٢/١/٨ هجرية..

الحائط حجر، والأرض بلاط، والباب معدن، وأنا أقدر على الكتابة على المعدن، بمسمار ربما، من تلك المسامير الكثيرة التى أجدها فى أرغفة الخبز.. أو ربما من المسامير التى مازالت موجودة فى حائط السجن حيث نعلق ملابسنا بعد كيها ونشرها وغسلها.. والحال مقلوب ولماذا لا، نحن هنا نكوى الملابس أولا ثم ننشرها، وبعد هذا كله نغسلها.. المهم أننى حصلت على المسمار المعدنى الذى كتبت به فوق باب الزنزانة المعدنى، وربما لم يكن مسمارا، ربما كان أزميلا فولاذيا، فما دام من الممكن والسهل أن أحصل على مسمار يكتب فى المعدن، فلماذا لا أحصل على أزميل، فهو أفضل فى الكتابة، ويتيح لى البراح للحديث عن توتو والساعة والتاريخ، وأن أنقش كل هذا مرة واحدة وقبل أن أريح العالم من شرورى مباشرة، حتى لا يكتشف أحد ما كتبت فيمنعنى مما أنتوى عمله..

توتو حقا والساعة.. لو عشت لتوتو سأخبره، حين أسعى لأوفر له الطعام والملبس والسكن والحب والحنان، حين أحضر له اللعب وأجلس أسامره أحكى له حكاية الغار والصديق الوفى الذى صحب النبى فى رحلته واختفى معه فى الغار، والصبى الشجاع الأمين الذى جلس فى فراش النبى ليخدع الكفار عنه، فيسهل له الإفلات من رماحهم المشرعة.. سأريحه من كل هذا الضرر الذى أحدثه له، لو شقيت بعد

خروجى من السجن لأوفر له كل هذا.. الطعام والملبس والسكن واللعب والحكايات وسندا لأيامه ومستقبله.. لن أضره، بل سأموت فهذا أفضل من الإضرار بغيرى.. توتو والساعة..

ابتسم ياتوتو، أتسمع دقاتها، تقول: تك، تك.. اضحك ياتوتو، أتسمع حركتها مع العقارب، تقول: تك، تك.. كوقع أحذية الحارس أمام الزنزانة... تك، تك، ويمضى الليل المظلم الكئيب، تك، تك، وأنت مطلوب أمام المحقق.. تك، تك، لابد أن تعترف، أخبرنا من معك، من حرضك، أنت رجل طيب، وتوتو فى انتظارك، فقط قل من مجموعتك، أسماء، مجرد أسماء والباقى علينا نحن، أخبرنا وأرح نفسك، قل، هم مجرد أسماء، لقد أخبرونا جميعهم بأنك شريكهم فى كل شيء، فى القتل، وفى التدبير، وفى التنظيم، أخبر ولا تسكت، والا فأنا لا ذنب لى إذا تركتك للمباحث، فأنت تعرف أن مهمة المحقق هى مجرد الاستجواب، أخبرنا حتى تنتهى من هذا الاستجواب، وأنت أبقيتنا طوال الليل، لا تريد أن تتكلم.. قل ياسيد، قل، وأرحنا، وأرح نفسك.. أنظر، كم الساعة الآن، تك، تك، تأخر الليل، وأنا بعيد عن بيتى وزوجتى، وأنا عريس حديث، تك، تك، وأنت الذى تبقينى خارج البيت وبعيدا عن فتاتى.. تك، تك.. تعبت، وأنت اتعبتنا، ألا تريد أن تستريح.. تك، تك، فقط تكلم وأنت تستريح.. نعم تستريح.. اطفئ هذا النور المبهر الذى يعمى عينيك، وافتح هذا المسراب فتغيض المياه التى تملأ الحجرة حتى وسطك، وأبعد هذا الجهاز الذى يدق فى أذنيك، تك، تك، وتستريح وأستريح، فقط قل.. أنت تعرف أننا معشر المحققين فى

صفك دائما، ولست أريد أن أحيلك إلى المباحث، فأنت تعرف هم لا يفهمون مانفهم، ولا يتحرجون مما نتحرج منه.. فقط أرح ضميرك وتكلم، حتى لا تضرنى، وتضر زوجتى، وتضر الآخرين. فنحن لا نعرفك ولكنك مع هذا تنغص عيشتنا بهذا الصمت الذى يأكل منا الساعات والدقائق.. تك.. تك..

ياتوتو.. وساعتك، تقول تك، تك، ياحبى نم، اسمع الحكاية، ونم، أحكيها لك على هذا النور الخافت الضئيل، لتسمع صوتى وتنام، فاسمع ونم، كانت سندريلا ترقص سعيدة مع الأمير، حققت لها الساحرة أحلامها فأعطتها الملبس اللائق والعربة اللائقة والسائقين التابعين، والخيول، والحذاء.. فقط عليها أن تعود إلى بيتها الفقير قبل أن ينتصف الليل.. تك، تك، أتسمع ياتوتو حركة الساعة، الدقات.. تقول دائما تك، تك،. وحين تقترب العقارب من الثانية عشر سينتهى السحر، وتعود سندريلا الفتاة الفقيرة التى ترتدى الأسمال، والتى عربتها زيف وخيولها خيال، وخدمها فئران، وهى مجرد حلم عبر.. وتسرع الساعة تك، تك، والرقص يدور، وهى تريد أن تجرى قبل أن تحين اللحظات الموعودة، فلكل وهم زمن محدود، وهى تخشى أن يكشف الزمن وهمها الذى عاشته، والتى جعلت أميرها يعيشه، وتك، تك، الساعة تتحرك، المؤشر يقترب، تك، تك، ياتوتو الزمن يقترب من اللحظة المحرمة، منتصف الليل وتنكشف الحقيقة وتتعرى سندريلا من كل الزيف الذى حملته معها إلى قصر الأمير..

وتك، تك، الساعة فى يدى، سأربطها إلى اليد الأخرى، قبل أن أنتحر، لابعد أن أنتحر، لابعد أن أتأكد أن معالم الانتحار قد أعدت.. مثلا كيف أربط عنقى بمنديلى، وكيف أعد هذا المنديل ليكون حبلا، ثم كيف أديره وأديره ليلتف حول رقبتى، ثم كيف أثبته بحيث يصبح خيّة، ثم كيف أثبته اسفل الحوض، حوض دورة المياه طبعا، وليس حوض الزنزانة، ثم أثبت قدمى على الحائط أسفل الحوض وأدفع جسمى إلى الاتجاه المضاد، أى اتجاه؟ وأى مضاد؟.. هذه مسألة أتركها لعبقريتى، المهم أن أربط يدى، وأربطهما، بعد هذا كله لكى لا أتمكن من التوقف عن دفع جسمى إلى الاتجاه المضاد.. فربط اليدين يمنعنى من التوقف عن دفع جسمى فى الاتجاه المضاد.. كيف.؟ لا تسألنى أسئلة غريبة ياتوتو.. فأنت توتو.. ياتوتو..

ـ جاء فى مقال فكرة لمصطفى أمين مانصه «وطلبت من النائب العام أن أطلع على التقرير الذى جاء فيه» أسفرت معاينة النيابة أن رأس الجثة متجهة ناحية باب الزنزانة فى منتصف دورة المياه بينما تتجه قدماه ناحية المرحاض. والجثة مسجاه على ظهرها حافى القدمين، ولوحظ جحوظ عينيه، وقطعة من القماش الأزرق ملفوفة على شكل حبل حول العنق وخاصة من الأمام، كما لوحظ وجود طاقيتين من القماش أسفل الجثة، قرر طبيب السجن أنه استخرجهما من فم المتوفى أثناء محاولة إسعافه.. وكذلك منديل أبيض اللون ملتف على شكل حبل، قرر طبيب السجن أنه كان ملتفا حول يديه من الخلف، كما لاحظ وجود قطعة قماش حول كوع الحوض من أسفل بشكل يوحى

بتصور قيام المتوفى بربط طرف القماشة التى كانت حول رقبته بكوع الحوض، ثم قيامه بتثبيت قدميه على الحائط أسفل الحوض.. ثم دفعه لجسمه فى الاتجاه المضاد بقوة..»

أنا جالس تحت العرش، تحت أقدام العرش الإلهى، والله يسألنى.. لماذا ياسنانيرى ربطت رقبتك بقماش أزرق.. ولماذا لم يكن القماش أخضر وهو اللون المفضل عند الملائكة. ألم تكن تعرف ياسنانيرى أننى سأختارك ملكا من ملائكتى.. ولم أستطع إجابة على الذات الالهية، فما لمثلى وحوار النور الأعظم، ولكن النور المبهر الرائع ملأ روحى كلها، وسمعت وسطه هذا الصوت الذى تجلى لموسى عند الجبل، وكان يهتف بى، ألا أحزن ولا أخاف..

ويهرنى النور، ضعت فى جلاله، وأحتوانى شعاعه الإلهى، فأحسست أننى أطير، وأحلق، وأصعد، ومرت بى موجة من نور، فضعت فى أعطافها.. ثم مرت بى موجة من جلال، فضعت فى أعطافها.. ثم مرت بى موجة من حب فغصت فيها إلى أذنى.. ولم أعد أرى أو أسمع أو أحس إلا نبض الحب، فى عنفه، وفى رقته، فى سماحته، وفى قدسيته، وتركت للموجة أن تجرفنى إلى لا حيث، إلى لاشىء، إلى لا وجود.. فأنا ابن هذه الموجة وهى أمى أعود، أعود إليها لتحتوينى، وفى دفء حنانها تلاشينى.. وأنسى صوت وقع أقدام الجثة، وأنسى وقع سياط فوق ظهرى، وأنسى نبض جلد هذا الظهر وهو يتمزق، ويهترئ، وهو يوجعنى، ثم لا يوجعنى، وهو يرسل نداءات الألم الى عقلى، ثم إذ هو يكف، فلا نداءات ألم، ولا عقل يتلقى ويترجم،

ويحملنى عبء ماتلقاه وترجمه.. فقط كنت أهوم وأحلق وأطير.. وأعلو، وأعلو، وأرتفع، إلى أين؟ لا أدرى؟ أبدا أن أدرى..

ياالله، ياعلى، ياقدير..

أنا ربطت المنديل فى رقبتى.. المنديل الأبيض اللون، لففته على شكل خية، حول يدى، ولففت منديلا أزرق اللون حول رقبتى وخاصة من الأمام.. ثم ملأت فمى بطاقيتين.. ياإلهى أنظر، وكانت رأس جثتى متجهة ناحية باب الزنزانة فى منتصف دورة المياه، بينما قدماى متجهتان ناحية المرحاض، كما لففت قطعة قماش حول كوع الحوض من أسفل، ثم ربطت طرف القماشة التى كانت حول رقبتى بكوع الحوض..

ثم ياإلهى العظيم القادر على كل شىء، ولا يقدر على كل هذه الأشياء إلا أنت سبحانك، ما أعظم معجزاتك، ثبت قدمى على الحائط أسفل الحوض.. ثم وأنت الإله القدير على كل شىء، ظللت أدفع بجسدى، ملتويا.. وأحتملت لحظات الاختناق، ثم أدفع، وأختنق، وأدفع وأختنق، وأنفاسى فى داخلى تحترق، لأدور دورة كاملة، وأثبت قدمى إلى الحائط، وأدفع وأدفع، ثم أدفع من جديد..

ما أحلى عذاب الاختناق وأجمله.. اضع القماشة عند أسفل المرحاض، واربط بها المنديل الذى لففته حول عنقى، وأثبت قدمى فى حائط الزلزانة أو الحمام أو المرحاض، أو أى شىء، ثم أدور، وأدور، وقد كتفت يدى حتى لا أدور، أو حتى لا أحركهما من وراء ظهرى، أو حتى لا انزع المنديل الأبيض من يدى، أو الأزرق حول عنقى، أو

الطاقيتين فى فمى، أو القماشة عند أسفل المرحاض، ثم أدور، وأسعد، وأدور، وأهنأ، وأدور، والمنديل يلتف حول عنقى، وأنا أصر على تحريك قدمى، فوق الحائط المقابل، لأدور من جديد، وليزداد التفاف الحبل حول عنقى.. وتختنق أنفاسى، وأدور، وفى فمى الطاقيتين أحشو بهما فمى، حتى لا أصرخ، أو حتى لا أزعج آذان الحراس بحشرجاتى وأنينى، أو حتى لا أقول للناس وللحياة وللوجود ولله.. معنى ما أعانى، وأنا أدور وأدور.. والأنفاس تهرب من أنفى، من لهاتى، من حلقى، من رئتى.. أحس بصدرى يحترق، والعرق ينداح، وأدور، وأدور، والعرق يزداد فوق جبهتى وصدغى، ووجهى كله، وقلبى تضطرب خفقاته، وصدرى يتمزق.. وأدور، وأدور، وكل الهواء يذهب، لا هواء، لاشىء إلا الألم المريع يمزق قلبى وصدرى، وحلقى، وأنفى، ووجودى كله، وأدور مع هذا كله وأدور.. وأنا ربطت يدى.. متى ربطتهما وكيف..؟ لا أدرى؟ فقد ربطت رسغى الأيمن إلى رسغى الأيسر.. فيه الساعة ياتوتو.. وهى تقول تك، تك.. وقلبى مضخة مخيفة تقول تك.. ثم تصمت، ثم تقول تك الأخرى، وأدور ألم أقل لك، أنا المارد الذى حبسه سيدنا سليمان فى قمقم مختوم بالرصاص، ورماه فى قاع البحر الملح الاجاج.. تتلاطم حوله الأمواج، وهو يصرخ من ضياع وجوده فى القمقم، كل وجوده انحصر فى قمقم صغير وهو العملاق المخيف، جسده دخل فى جسده، ووجودى دخل فى وجودى، وهو محصور داخل القمقم سنة أو سنوات أو عشرات، مئة أو مئات، ألف أو الآف، هو محصور داخل القمقم، جسده مضغوط ووجوده كله أصبح هذه المساحة

الضيقة المخيفة.. هل كنت أبدا داخل قمقم مختوم بالرصاص، مرمى فى أعماق البحر، يحكمك سحر سليمان، وكلمات السر الأعظم وطلسمات على فم القمقم المدفون وسط موج البحر الملح وأمواجه العجاج؟.. وأدور، وأدور، وطعم الملح فى فمى، هو كل فمى، ينفر منه لسانى، رويدا رويدا، واضغط وأدور... استمتع بأننى أموت، بأننى حين ادور أضغط، وحين أضغط تهرب أنفاسى، وحين تهرب أنفاسى، أتعذب، ويتمزق صدرى، وأختنق، ولكنى فوق العذاب فوق تمزق الصدر، فوق الاختناق، فهناك رسالة هامة لابد من تحقيقها.. أتعرف، أنا شرير، ولابد للعالم أن يتخلص من شرورى، أنا ضار، ولابد للعالم أن يتخلص من كل ما أسببه من أضرار، أنا اتمزق، انهار، أضيع، صدرى، قلبى، أنفاسى، وجودى كله، مزق، مزق، وضياع.. وأدور.. أدور..

ـ .. قالت فكرة لمصطفى أمين «وجدت آثارلطلاء الحائط من الجير بقدمى المتوفى»

وقدمى حافية، أثبتهما فى الحائط فى عنف، وأدفعهما من جديد فى عنف، تلمس الحائط فيهتز جلدها كله.. قدما وراء قدم، ويهتز الجلد من جديد، ثم يلتصق بالحائط فى عنف، وفى قسوة، يمزق الملاط الجيرى، ويمزق معنى الآدمية فى، فهذا عمل مقدس مخيف، حكمت به الآلهة من قديم، أحمل الصخرة إلى أعلى، وأصارع كى أصل بها إلى قمة الجبل، فإذا بها تسقط، وأسقط معها وأعود أحملها، وأرفعها، وأدفع بها فوق كاهلى إلى أعلى من جديد، فإذا ما وصلت إلى القمة، عادت

وسقطت مرة اخرى إلى القاع، وأنا معها.. أحملها من جديد، وأعود أعود، فى إصرار عبثى مريع أن أحملها إلى القمة من جديد، والقمة لا تظهر أبدا.. بعيدة، بعيدة، كأنها لا وجود لها، فإذا ما ظهر وجودها، سقطت الصخرة، وأنا معها، إلى القاع.. من جديد إلى القاع..

ولكننى انا وحدى، أنا السنانيرى أستطيع أن أحتمل الصخرة، وأن اضعها فوق صدرى، فأختنق وأموت.. لم يفعلها واحد من أبطال وآلهة الأوليب، ولكنى وحدى فعلتها دون أن أكون بطلا أو إلها أو حتى شبح إله.. ففى دنيانا الإنسان ضعيف ومؤمن، مستسلم لإرادة الله العظيم ومؤمن، قابل لحكم الله فى كل حال ومؤمن، مستكين لأمر الله ومؤمن.. فما شاء الله كان، وما أراد الله حق، وما الإنسان إلا عابد مطيع، مؤمن بأن ما أصابه من إرادة الله، أن خيرا فهو من الله، وإن شرا فهو من صنعه وحده، هو الذى صنعه بشرّه واستسلامه لإغراء الشيطان، ولغرائزة الشرير.. وأدور وأدور، والقماشة الزرقاء تدور حول حنجرتى، رقبتى، أنفاسى، وجودى كله.. والقماشة البيضاء تلتف حول رسغى، كفى، أصابعى، إرادتى، وجودى كله.. والساعة فى المعصم تدق، تك، تك، ياتوتو.. الساعة لك.. الساعة لك، ياتوتو.. يامن اسمك يصنع الوجود كله، ياتوتو..

وأحفر بقدمى العارية، جدران الحائط الجيرى، وأنزع منه الجير؟ ياحرام!! سأذهب إلى النار، سأعاقب لأننى حفرت الجير بقدمى العاريتين من الحائط المقدس، يلتف حوله اليهود، يبكون، دائما يبكون أمام الحائط المبكى، منذ قهر بختنصر دولة يهوذا، وهدم الحائط

والمبكى، أقاموه من جديد بعد أن انتهى بختنصر ودولته، ووجوده كله، وظلوا يبكون فوق الحائط، وأنا احفر الحائط بقدمى العاريتين ويترك ملاطه أثره فوق قدمى، آثم انا فى كل شىء، حتى الحائط، المبكى، الرمز، أحك قدمى العاريتين فيه بقسوة وعنف، فيملأ ملاط الحائط قدمى، ليشير إلىّ.. هذا هو الآثم الذى انتهك قدسية الحائط، وجلال الملاط.. وأدور وأدور، وينتزع تعبى جزءاً من الملاط، وينتزع الحبل فى عنف جزءا من الحياة، ويلتف ويلتف، وأدور بقدمى وأدور.. والحبل يدور، والدنيا تدور، والعرق ينداح، وأنفاسى تضيع، تتحشرج، تتمزق فى صدرى، تندلع نارا فى صدرى، وأنا أسعد وأبتسم، وأتمتع بدنيا الموت والاختناق..

ـ.. قالت فكرة لمصطفى أمين ما نصه «وقد سئل مأمور السجن الذى جاءت أقواله بما لا يخرج عما تقدم، وأضاف إن المتوفى كان هادئا طوال فترة وجوده.. بل كان يستعين به فى كثير من الأحيان لتهدئة باقى المتحفظ عليهم الذين كانوا يستجيبون له..»

ياإخوتى، السجن حق، والتعذيب حق، وكلمات السجان والمعذب والمأمور حق، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نطيع أولى الأمر فينا، وما أولى الأمر الا هذا المأمور وهذا السجان، وهذا الممسك بالسوط، وهذا الذى يطلق علينا الكلاب.. يا إخوتى أمنوا بالله وباليوم الآخر، وعذاب المذنبين، ونحن ياإخوتى أذنبنا حين وجدنا، وحين فكرنا، وحين كن لنا رأى.. فالرأى أن لم يوافق هوى أولى الأمر جريمة، فنحن إذن مجرمون، ياإخوتى، مجرمون.. مجرمون، نتوب إلى الله،

ونعود إلى الله.. مثلنا مثل الأشقياء في الاتحاد السوفيتي حين ينقدون أنفسهم نقدا ذاتيا ويعترفون بأنهم أثموا فى حق الحزب وحق الشعب، وأنهم يكفرون عن ذنوبهم تجاه الحزب والشعب يتقبل كل ما يصدره عليهم الحزب والشعب من أحكام.. وقال جورج اورويل فى روايته العجيبة عام ٨٤، أن الرجال يقفون أمام الشاشة العريضة التى تملأ كل حائط فيعترفون بذنوبهم أمام الشعب، وانهم اخطأوا فى حق السيد، وامرأة السيد، وأنهم آثمون يستحقون العقاب، وهم ينطقون كلماتهم عبر أسنانهم المهشمة، ومن خلال وجوههم الهضيمة، وعيونهم التى بهتت فيها معالم الحياة، ولكنهم آثمون يعترفون بأخطائهم ويتركون أمر الحكم فيها إلى الحزب وإلى الحاكم.. أما نحن ياإخوتنا، ياأبناء الشريعة الإسلامية الغراء، فينبغى أن نجنب الحاكم والمحكوم اثمنا، ينبغى أن نموت وأن نؤكد حين نموت أن موتنا أفضل من الإضرار بغيرنا.. والله أعلم..

ياأخوتنا، يامن تؤمنون بما أقول، وتستجيبون لما أقول، أنا أقول لكم، موتوا تصحوا وتسلموا وتدخلون الجنة، فالجنة ياأخوتى، تفتح أبوابها لمن ينتحر فى المرحاض، ويقيد يديه بالمنديل الأزرق، ويقيد رقبته بالمنديل الأبيض، ويدير قدميه فى الحائط الجيرى لتمتلئ قدماه ببقايا جير حائط المعبد..

والجنة ياإخوان، لمن يدور بجسده وهو مقيد رقبته بأسفل الحوض يعتصرها عصرا شافيا للغليل، محققا للآمال كلما دار بجسده بحيث يلتوى هذا الجسد فيصبح (رأس الجثة متجهة ناحية باب الزنزانة فى

منتصف دورة المياه، بينما تتجه قدماه ناحية المرحاض) وبحيث تصبح (الجثة مسجاه على ظهرها حافى القدمين).. فمن العيب أن نموت وفى أقدامنا شىء يخفى اثر الملاط على القدمين، فهذا حرام يدخل مرتكبه النار وبئس المصير..

ياإخوان.. الدين واضح، والشرع واضح، من أراد أن يموت فيدخل الجنة فعليه أن يضع (قطعة قماش أزرق ملفوفة على شكل حبل حول العنق وخاصة من الأمام) وانتبهوا ياإخوان إلى (خاصة) هذه، لم يقل ضرورة، ولم يقل الزاما، وإنما قال خاصة والله أعلم.. ماذا قال؟.. قال خاصة من الأمام.. ياسلام.. ياسلام.. ونعم القول.. أنظروا البلاغة والكمال.. سبحان الله فيما قدر وفعل وقال؟..

ثم ماذا ياسيدنا.. قال: «وساعتى هدية لتوتو وإنا لله وإنا إليه راجعون.. والتوقيع السنانيرى بتاريخ ١٤٠٢/١/٨ هجرية».. ياعينى.. تمام يامشايخ.. تمام التمام.. كله يعود إلى عنبره وزنزانته، وسبحوا باسم المأمور الكريم والمحقق العفيف، والباشا الشريف، فكلهم من نسل النبى عليه الصلاة وعلى آله السلام، صلى الله على سيدنا محمد، ياأمة محمد، عودوا إلى زنزاناتكم، وامتثلوا لأوامر الشرع.. ولا تغضبوا من يتحكمون فى الرقاب فإنا لله وإنا إليه راجعون.. والتوقيع السنانيرى بتاريخ ١٤٠٢/١/٨ هجرية.

ـ جاء فى فكرة لمصطفى أمين مانصه «وطلبت الاطلاع على تقرير الطبيب الشرعى وقد جاء فيه:» وجد أثر حز حيوى حديث يحيط بالعنق، حدث نتيجة الضغط على العنق باستعمال جسم لين، ووجود

إصابة حيوية حديثة بمؤخرة يمين الرأس حدث من المصادمة بجسم صلب، كما وجد حز حيوى يحيط بأسفل الساعد الأيسر نتيجة الضغط على هذا الموضع بجسم لين.. وكانت طبيعة الحز المشاهد بالعنق وعلامات الاسفكسيا العامة المشاهدة بالجثة تفصح عن أن الوفاة قد نشأت من أسفكسيا الشنق».

وأنا حين حاولت ان ألتوى بإسادة اصيبت راسى، بمؤخر يمينها بإصابة حادة مؤثرة وصعبة، فقد كنت أتحرك والتوى، فأصابت رأسى بعنف طرف المرحاض.. أو طرف كوع الحوض.. أو الباب المعدنى، أو أى شيء تريدون، فقط هذه الإصابة تمت وانتهى الأمر.. ولكنها حين حدثت، أى حين أصيبت رأسى بمؤخرة يمينها لم أغب عن الوعى من الألم، ولم أحس بهذا التهشم، ولم أع بما حدث بمؤخرة رأسى، فقد كانت رأسى ساعتها منشغلة تماما فى التفكير فى مسألة محيرة، فلم تلتفت إلى ما حدث لها.. كانت المشكلة هى أيهما أجدى، الانفتاح الاقتصادى، أم الاقتصاد الانفتاحى.. كنت منهمكا تماما فى هذه القضية بحيث لم احس برأسى وهى تصطدم بما اصطدمت به، أكان آلة حادة فى يد كلب لا ضمير له، أم كانت طرف مرحاض أو حوض، أو سور زنزانة، المسألة كانت أهم.. هل العلم أسبق من الإيمان، أم الإيمان أسبق من العلم، و،أيهما كان الأسبق، فأيهما من واردات محلات بيير كادان، وأيهما أقرب إلى مزارع كاليفورنيا، ثم أيهما بالذات المسئول عن تهريب الحشيش إلى مصر، واختفاء الموز من الأسواق.. يعنى المسألة آخر الأمر أننى منحرف، وسأسيء إلى غيرى، وأضربه، والاولى، نعم الاولى أن أموت خيرا من أن اضر بالناس..

موردى السجاير الأجنبية، والجبن الفاسد واللحوم التى ينبغى أن تحرق، وأرجل الدجاج البرى المستورد الذى فسد عند أصحابه من زمن، لأبيعه لمن ضاق بهم الحال، وحل بهم الضنك حتى ليأكلوا لحوم الحمير والكلاب والدجاج الميت.. فالعام عام الجوع..

ولكنى ياتوتو.. لا تغضب ياتوتو.. ولا تنزعج فأنا عندى أسفكسيا الاختناق، أو اسفكسيا الشنق، وهى عادة تضيع بالأسبرين والنوفالجين والراحة التامة فى السرير ثلاثة أيام.. ويستحسن معها تناول فيتامين سى، والشوربة الساخنة..

ياتوتو، نم.. واهدأ.. وماما ستعطيك الدواء بالمعلقة، ثم تصنع لك الشوربة وتعصر عليها الليمون.. اشرب الشوربة ياتوتو.. ولا تقم من سريرك أبدا، وستشفى بإذن الله بعد حين.

قالت أمك، إنك مريض واشتريت لك الفروج، الفروج الصغيرة السن، لتأكلها وتشرب الشوربة، وتنام فى راحة وهدوء.. وابعد عنك الساعة تقول تك، تك، فتؤرق نومك، وتزعجك.. وهى عنيدة وتقول تك، تك.. ألا تعرف تك، تك، إذا كانت خافتة تصدر من تحرك الساعة، وتك، تك، إذا كانت مؤلمة تصدر من تحرك الضمير.. وتك تك إذا كانت عالية تصدر من دوى المدافع الرشاشة فى أيدى من عبروا القناة وحطموا خط بارليف..

ألا تعرف خط بارليف ياتوتو.. كيف ياحبيبى؟ كيف ستنام إذن؟ وكيف تأكل شوربة الدجاج؟ بل كيف جاء الصداع، وكيف جاءت أسفكسيا الشنق، إن لم تعرف خط بارليف..؟

بارليف كان رجلا يأكل البولبيف، ويبيع الجبنة الرومى ولحم الخنزير فى مصر المحروسة، ويعيش فى حارة اليهود القرائين، وفى الإسماعيلية، ثم مؤخرا فى أرض الغزاوية بفلسطين، وحصل له انفتاح ياتوتو.. فأكل الجبنة الرومي ولحم الخنزير الذى يبيعها فى مصر المحروسة، ثم اتخم، وازدادت شهيته فأراد أن يأكل مصر المحروسة كلها، وبنى خط بارليف، حتى يهضم ما أكله فى أمان ثم يتهيأ لابتلاع الإسماعيلية وحارة اليهود القرائين بين الجمالية والأزبكية، وحتى يبعد عن معسه يأجوج ومأجوج، فيهضم فى هدوء، ويعود إلى شهيته الأولى، ويضع المستردة فوق قطعة اللحم ويلتهم مصر المحروسة إن لم يكن من الفخذ فمن الرقبة، ولحم الرقبة تصنع منه الشوربة ياتوتو، وتعصر عليها الليمون وتشربها وأنت مريض بالانفلونزا فتشفيك من اسفكسيا الشنق..

ولكن يأجوج ومأجوج استيقظوا..

بعد سنوات الذل والعار، الجنود يصطفون صفوفا صفوفا، والعربات التى تحمل الرشاشات تتقدم، فى نظام ومدنية وحضارة، تتقدم.. ثم تطلق الرصاص، صفا وراء صف يقع، مزق من لحم وأجساد ودماء وبقايا صرخات، ثم يلتهم التراب، وتحتوى الرمال كل شىء.. والضباط.. يخلعون السترات والسراويل، ويبقون فى الفانلات، والألبسة، والجوارب ويجرون، وهم يصرخون على الايقاع هيه.. هيه، ثم يقفون، ثم يجرون.. ثم يجلسون مقعيين، وهم أيضا يصرخون على

الايقاع هيه.. هيه.. ثم يقفون والبنادق فى ظهورهم ليؤدوا التحية للعلم الإسرائيلى وهو يرفع فوق موقعهم، وقائدهم أمامهم بلا سروال وإنما يلبس السترة مليئة بالأوسمة وعلامات الرتبة والشراب وبلا حذاء..

ويدوى فى الجو حولهم عزف الفرقة للنشيد الإسرائيلى.. ويرفع يده إلى جبهته أمامهم تحية للعلم، وهم يرفعون أيديهم إلى الجباه.. وبارليف يأكل الهامبورجر والبولبيف.. ويدوى النفير..

ويلحس مأجوج ويأجوج السد.. بألسنتهم، بشفاههم، بأسنانهم، بأرواحهم برءوسهم تدخل فى فوهات المدافع، بأجسادهم تسد منافذ الدانات..

ياالله.. ويتهاوى بارليف، ويندفع الماء المخيف من وراء السد، يأكل السد وكل ما فيه، وكل ما شيد فيه..

ياولد السد انهار.. «ارجعى ياشولميت ارجعى، وارجعى.. فتنظر إليك..».. السد انهار.. السد انهار.. وشولميت ضاعت وسط الطوفان، أكلها غول انطلق من النيل الحبيس المذل المهان، فجرف كل ما أمامه، وضاعت شولميت، ياتعس عليك ياشولميت.. ارجعى.. ارجعى.. السد انهار.. ارجعى، ارجعى، السد أكله يأجوج ومأجوج، ارجعى، ارجعى السد جرفه النيل العجاج.. ياشموليت، فننظر إليك.. فننظر ياشولميت إليك..

وعند الحائط اجتمع الباكون، يبكون، يصرخون، وصاح الحائط فى حنق وغضب:

«ارجعوا عني ياجميع فاعلى الاثم».. ارجعوا ارجعوا عن حائط صهيون، فالسد انهار، ويأجوج ومأجوج أكلوا السد كله، وآذابوه في أفواههم المصنوعة من الرصاص، المختوم عليها من طمي النيل.. أما بارليف فقد ضاع.. لأنه في الباطل يجيء، وفي الظلام يذهب، واسمه يغطى بالظلام».. وبالحديد وبالنار، وبالصرخات النابعة من ظلمات ملأها القهر «ومثل ماتزرع تحصد» والنار النار، والغل الغل، «وهؤلاء القادمون من البرية» في وقت المساء إذا رعب، قبل الصبح ليسوا هم»..
وصرخوا «أيها الصارخ في البرية اسمع صراخنا واقبل عثرة أبنائك في الصحراء القفر الموحشة، في يوم الهول العظيم».. ضاع كل شيء.».

«باطل الأباطيل، الكل باطل وقبض الريح»..

ياإلهنا ثبت أقدامنا، وامنحنا غفرانك، وارفع عنا هذا العذاب.. قال الإله.. نحن أعلى الجبل في سيناء، أنتم سرقتم ذهب مصر، وخرجتم به، وصنعتم منه العجل، وعبدتموه.. فارجعوا، ارجعوا، وإلا فالويل مني عظيم.. «ومن هو جاهل فليمل إلى هنا».. ومالوا جميعا إلى هنا.. واجتاحهم الطوفان المخيف من النهر الساكن الهادئ المستكين.

وماذا نفعل ياالياهو.. خبرنا، ماذا نفعل.. قل لي ياالياهو.. «في النهار أدعو فلا تستجيب، في الليل أدعو فلا هدوء لي»..

حلما كان أضاعه النهار، حين جاء الليل امتلأ بالقمر والنجوم، فصار الليل باهر الضوء.. وفي النور يموت الخفاش ياتوتو، أو يختفي..

لم أحك لك عن الخفاش ياتوتو، هو طير حيوان، أو هو شيء يعيش في عالمين، هو طير، ولكنه لا يبيض، هو يلد، أفهمت ياتوتو، هو طير

حيوان، شرع جناحيه على الوادى فأظل الوادى كله.. وقال أنا النمروذ ابن كنعان، أنا احارب الله فى جبروته، أنا أصعد إليه فى السماء أنا العجيب ولدت فى عالمين، فأنا ابن النطفتين وحامل الرسالتين، والساعى بالسلام والحب بين الشعبين، شعب الخراف وشعب الذئاب.. والباقى، المعترض الباقى، الممتنع الباقى من الخراف هو فريستى فى الليل المجهول المخوف..

ياتوتو هذه حكاية خط بارليف، الخفاش، فجأة ظهر فى عز النهار، وقال:

أنا صعدت إلى الله فى صندوق تحمله أربعة نسور، إلى أعلى، وناديت عليه وأنا مشهر رمحى، ومفوق سهامى، فحين رأيته، ضربت الرمح إلى النور، وصوبت السهام إلى الهدف، وعاد الرمح محملا بالدماء، وعادت السهام وكلها ندف من لحم ودم..

ومات، أنا قتلته، ثم أشرفت على دفنه، وسرت فى جنازته، وقبلت التعازى وسهرت الليالى، أبكيه واترحم عليه.. فالله يرحمه..

وأنا أقول عودوا حتى لا يغضب التنين فيأكل النهر والماء، ويبتلع كل الخصب والصحراء .. عودوا.. عودوا.. هذا كلامى أنا.. ومن لم يسمعه ويطيعه ليس ابن الوادى الأمين..

وانقض الخفاش فأطبق الظلام، لم ير الوادى شيئا، ولم ير الرجال عند حافة الصحراء شيئا، فقط الأمر الدائم..

- عودوا، عودوا..

ومات كل شيء..

أعرفت ياتوتو حكاية خط بارليف، لا يعرف أحد حتى الآن من هو بارليف، هل هو مجرد رجل يأكل البولبيف، أم هو شريك في مصنع البسطرمة مع الخفاش، أم هو طامع أجهضته ألسنة يأجوج ومأجوج وهي تأكل السد، وتذيبه أمامه.. فلجأ إلى الخفاش العبقري ومن حوله ممن باعوا أعراض النساء في كل الأسواق، وكرامات الرجال بحيث تأتي بالعملات الصعبة، وأقوات الناس بحيث تأتي بأدوات الترف والصيد، وأبهة لقاء الملوك والملكات، وكل مطرود عن عرشه.. ياتوتو، ماذا أحكي لك ماذا أحكي.. فقط اشرب الشوربة حتى تضيع الانفلونزا، البرد، المرض، أعني اسفكسيا الشنق..

ـ قالت فكرة لمصطفى أمين نقلا عن تقرير الطبيب الشرعي: «ويجوز حصول ذلك بصفة انتحارية وباستعمال قطعة القماش التي وجدت ملفوفة حول العنق بشكل «خية» وان وجود اليدين مقيدتين خلف الظهر لا تنفي واقعة الانتحار، حيث أنه من الممكن أن يقوم المذكور بعمل جميع الإجراءات اللازمة لعملية الشنق ويمكن بعد ذلك أن يقوم بسهولة بتقييد يديه خلف ظهره بمثل المنديل المضبوط، وذلك لكي لا يستطيع القيام بأي محاولة لانقاذ نفسه لحظة التنفيذ».

وأنا ذبحت نفسي بالسكين المقدس المغموس في ماء رع الإلهي.. وتركت الدم يسيل في إناء القربان المقدس، وهذا أمرسهل، فمن ظل يدير جسده وقد وضع رأسه في خية متينة في مرحاض، يستطيع أن يحز عنقه بنفسه، هكذا قال ست لمجمع الكهنة.. قال ست واسمعوه:

– أنا ست أنا تيفون، أنا الذى أعلنت الألوهية يوم كان أو زير على رأس الجنة، ولكنى أنا الذى نفخت فى البوق وقلت: ياأولاد الحلال، من شاف منكم ملكا تائها فنحن طردناه، من شاف منكم اقطاعا فنحن عزلناه، من شاف منكم حزبا فنحن حللناه.. ياعدوى.. ثم اسرعت إلى سينما أخرى غير السينما التى كنت فيها لحظة تحرك أوزير بعسكره المجنون.. وهو ليس مجنونا تماما، وإنما لابد أن يموت بأسفكسيا الاختناق.. كما قال الطبيب الشرعى فى تقريره الرسمى المؤيد بأقوال جماعة الطب الرسمى، وأقوال الشهود، وإعلان الإذاعة، وما جاء فى الجرائد الرسمية وما كتبه الكتاب الكبار فى ذلك الحين من أمثال الطبال والقواد والحاوى الطروب ورحم الله صلاح عبد الصبور ياولدى..

المهم أننا أصدرنا قرارا ملكيا جمهوريا قبليا، أسريا، فرديا، ساميا، بأن أوزير انتحر.. قتل نفسه بالسكين، ذبح رقبته، حين وضع السكين على طرفها الأيمن ثم اتكأ بمرفقه، حتى حز السكين بالعنق نفسها تحت تفاحة آدم تماما، فهو كافر لا يحترم آدم ولا التفاحة، ثم بعد أن قطع جسده بعد أن قيد يديه، وكذلك قدميه وضع نفسه فى التابوت، وسمر التابوت بالمسامير ثم رماه فى البحر، وأخذه البحر وضاع.. وأوأكد هذا ياإخوان، رحمكم الله واثابكم،.. وأن الله يثيب الإنسان بقدر عمله.. آتون أعنى آمون ، بل أعنى أمين، وإله العظين، أعنى والله العظيم.. وجلّ من سها، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ماكسبت وعليها مااكتسبت ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو اخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراكما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به، وأعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فأنصرنا على القوم الكافرين. صدق الله

العظيم.. رحمنا الله وإياكم وغفر لنا واسألوا الشيوخ والتليفزيون، فنحن المؤمنون الساهرون التابعون، الناهبون، أبدا.. والله على ما أقول شهيد، وهذا كله أخرجنا عن موضوعنا، فقط الله لنا ولكم، أقم الصلاة.. أو كما قال:

ـ جاء فى فكرة لمصطفى أمين مانصه: «وختم رئيس نيابة استئناف القاهرة تقريره بقوله (وأمام ما اسفرت عنه معاينة النيابة للجثة على أثر الواقعة، وماقرره طبيب السجن ومأموره، ومن سئل من رجال السجون، وما انتهى إليه تقرير الصفة التشريحية فقد تم حفظ المحضر إداريا.

وأنا السنانيرى، أعنى محمد كمال الدين السنانيرى لم يعن أحد بإثبات حياتى بكل هذه الأدلة والبراهين والوثائق الشرعية، ولكنى فى موتى جللت.. (بأمام، وأثر ما قرروه، ومن سئل، وما انتهى اليه، ثم تم حفظ..) كل هذا لى أنا محمد كمال الدين السنانيرى، أرأيت ياتوتو، كيف تحب مصر معنى الموت، وكيف تحتفل به، الأهرامات العالية، درجة وراء درجة ثم تكسى بالملاط، ثم بعد ذلك بالنقوش، والجسد المحنط فى تابوت من ذهب، وتابوت الذهب داخل تابوت آخر أكبر منه من نحاس، وهذا بدوره داخل تابوت أكبر منه من رخام، والكل فى حجرة، والحجرة من داخل سرداب، والسرداب داخل هرم، وحوله أكثر من باب مزيف.. وأنا السنانيرى ابن من شيدوا الهرم.

ومن قديم جدا ياتوتو، قالت لى أمى، أعنى جدتى، بل ربما أعنى أم جدتى، حكت لى عن يونس الذى ابتلعه الحوت.. والحوت غاص فى السنون، فى البحر المحيط الملعون، طبقات من الظلمة وطبقات،

والحوت يغوص، يدخل فى الأعماق، وصرخات يونس يكتمها بطن الحوت، وأعماق المحيط، وأنه داخل السنون..

ولكن هذا ياتوتو، هذا كله، لم يحجب صوت يونس، فسمعه الرب الذى فى السماء، فأمر فإذا الحوت يصعد من أعمق الأعماق، وإذا هو عند السطح يلفظ يونس يبتهل إلى الله عند الشاطئ المهجور، وقد قبل الرب توبته، وأنابه وأثابة من جديد..

لم يفهم الطبيب، والمأمور، والوكيل، والرئيس، والاستئناف، والحفظ الإدارى، أن الله موجود، يستمع ويعفو، ويعيد إلى الحياة من جديد.. يونس من بطن الحوت.

حكاية ياتوتو، قلت لك من حكاها، جدة جدتى، أو أم جدة جدتى، ولكنها حكتها ياتوتو ونساء زمان كن يعرفن الحكايات، وكن يعرفن كيف يحكين هذه الحكايات، فأول الجدات من زمن قديم، موغل فى القدم كانت جدتنا شهر زاد تحكى لرجل أبله اسمه شهريار، حكايات تصرفه بها عن قتل عذارى المدينة، فقد جاءت جدتنا شهر زاد تحكى بعد أن امتلأ قلب شهريار بالغل على النساء، لا من خيانة امرأته، ولا من خيانة زوجة شاه زمان أخيه، وإنما من حكاية الجارية التى اسرها الجنى، ووضعها فى علبة، والعلبة فى داخل صندوق، والصندوق فى آخر البحر، حيث رماها الجنى الذى أسرها ليلة زفافها، ومضى يحرسها كجنى وكعفريت، ومع هذا تقول الحكاية، أنها استطاعت أن تخون هذا العفريت ٧٣ مرة وأن يكون شاه زمان وشهريار هما اللذان يكملان فى عقدها السحرى ٧٣ مرة من خيانة هذا العفريت الملعون.. أى أن هذه

الغانية لم تقهر، لا العفريت، ولا العلبة، داخل الصندوق، ولا جبروت العفريت ولا سطوته، لا أنه أخذها في عمق الأعماق، وداخل المحيطات..

ياتوتو الإنسان يبقى دائما وأبدا.. يبقى رغم الأقفال والسدود، رغم القهر والتعاسة والعنف، ويدل بوجوده ويعلن إنسانيته، ويقول أنا الإنسان الضعيف، ولكني الإنسان القادر.. وهل أقدر ياتوتو من أن ألف نفسي وأنا مقيد اليدين لأعتصر الحياة من جسدي ومن وجودي كله..

لاتحزن ياتوتو فقد دخلت أنا التاريخ من أوسع أبوابه، وحققت شيئا لم يفعله أو ليس ولا هرقل ولا عنترة ولا سيف بن ذي يزن، وكتبت عني المحاضر الرسمية والإدارية صفحات وصفحات من الرئيس ورئيس الرئيس إلى المرءوس ومرءوس المرءوس ثم كتبت الصحف وكتاب الصحف، وأكدت كلها أنني انتحرت.. ولست لا سمح الله قليل الأدب، أو وقحا، لأكذب كل هؤلاء الأ ماجد العظام..

ـ وختم مصطفى أمين فكرته بقوله: «وقال لي النائب العام أنه خصص مكتبا يحقق شكاوى المعتقلين أو المحبوسين أو المسجونين أو أهلهم، وهذا المكتب مؤلف من رئيس نيابة وثلاثة من وكلاء النيابة وأن هذا المكتب يحقق كل شكوى، وينتدب الطبيب الشرعي، وقد انتهى من تحقيق عدة شكاوى، ولايزال يحقق بقية الشكاوى.

انتهى تصريح النائب العام..

اليوم ياتوتو سأكتب بالإبر فوق آماق البصر هذا الحديث، وأخفي الازميل العتيد الذي حفر به القدماء في بلادنا فوق الصخر، وحفرت به

أنا فوق الحديد، اسمى والتاريخ وهدية الساعة لك وأننى أفضل هذه النهاية على أن أضر بالآخرين..

وتعال بعد أن تتوضأ وتصلى فى الفجر ندعو معا أن يمنع الله شرورنا عن البشر أجمعين، ياالله ياناصر الخير، أنا الشر المكين، اغفر لى أننى قتلت النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق، فهى نفسى أنا، وأنا أعرف الحق لأننى أنتوى أن أضر الآخرين، وإنما ياالله ياكريم، الأعمال بالنيات ولكل امرئ مانوى، وأنا ياالهى الكريم أتوب إليك فأقبل توبتى، لأننى ياإلهى الكريم، شغلت مكانا فى زنزانة فى مرحاض، فى مستنقع، فى عين حمئة، وفيها أنهيت حياتى لأذهب إلى أسفل سافلين..

قل ياتوتو وأنت راكع أمام القبلة، نظيف القلب والروح والبدن.. قل:

– يارب أنت صانع المعجزات، كان السنانيرى معجزتك، فهو من خلقك.. وعاش معجزتك، وسط خلقك، ومات معجزتك بشىء يفوق قدرة خلقك..

ولكن ياربنا هو لم يكن يريد أن يعذب سجانه، ولا أن يضنى المحقق معه، ولا أن يقلق النائب، ولا أن يضايق الطبيب الشرعى.

نعم ياإلهى هو عاش فى صمت، ومات فى صمت، فلم تخترقون الصمت..

سكوتا.. فالموت جاء.. الموت جاء.. الموت جاء

مضاض ومي

أخذ الحارث الجرهمي يتأمل في وجه جليسه وهو يعبث بيده في لحيته التي بدأ الشيب يزحف إليها، ثم قال:

- لقد أستدعيتك لأمر هام ولكنه لايعني سوانا، ولهذا فقد إنتظرت حتى انفض المجلس قبل أن أحادثك في الأمر.

وبدت الحيرة على وجه مهليل بن عامر ولكنه لم يتكلم، فعاد الحارث يقول:

- إن الأيام يا مهليل، تدور، والسنين تتلاحق. وسرعان ما يشب أطفالنا، ويدخلون في طور الرجولة دون أن ننتبه نحن إلى تغير الزمن، وتتابع الأيام.

وازدادت دهشة مهليل بن عامر فلم يكن ليخطر له أن يستدعيه الملك، ثم يبقيه بعد انفضاض المجلس ليحدثه عن تتابع الأيام، وعاد صوت الحارث المتئد النبرات يقطع ماران على الخيمة من سكون.

ـ لقد شب مضاض ابن اخى الملك عمرو، وليس بمكة ولاما والاها أجمل منه منظرا ولا أكمل رجولة، ولا أعرق حسبا..

وعلى الرغم من دهشة مهليل بن عامر، الا أنه ابتسم عندما جاء ذكر مضاض بن عمرو فقد كان الفتى دائما محط إعجابه وحبه، واعتدل مهليل فى جلسته وهو يقول:

ـ إنه زينة الفتيان فى مكة.

وانفرجت أسارير الملك الحارث، وعلت وجهه علامات السرور وقال:

ـ وكذلك ابنتك مى زينة فتيات مكة.

وعادت الدهشة تتملك مهليل بن عامر، وإن أحس قلبه أن الملك بخفى عنه شيئا، ولكنه قال:

ـ وما علاقة ابنتى بمضاض يا ابن العم؟

ـ انها معه فى نسق واحد، وهى أجمل من رأته العيون، شب معها وشبت معه فى حى واحد.

فأجفل مهليل وهو يقول مأخوذا:

ـ أتعنى؟

فأطرق الحارث الجرهمى مؤمنا وهويقول:

ـ لقد فتنت به وفتن بها، وقد شبا الآن عن عبث الطفولة. وعرفا معنى الهوى، وقد صان مضاض مئزره عنها، فلما بلغ الهوى مبلغه.

وحذرا من الفضيحة. جاءا إلى، فشكوا ما نزل بهما من شوق بعضهما إلى بعض، وقد رحمت والله يا مهليل هذا الحب العف، ورأيت أن أبعث إليك فأخاطبك فى أمره.

فأطرق مهليل بن عامر ونفسه تجيش بعواطف متباينة، ثم رفع رأسه وهو يقول:

- أيها الملك، أنت وليهما أفعل بهما برأيك، وزوجها منه

قال الملك متهللا:

- ونعم الرأى يا ابن عم، لقد هجم علينا الشهر الأصم رجب، ونحن لانحدث فيه حدثا غير العمرة والطواف حتى ينسلخ، فلننتظر يا مهليل إذن حتى ينصرف رجب، فنعقد له عليها.

* * *

عندما همست سلمى ووجهها ملىء بالانفعال فى أذن مى.

- لقد رأيته، إنه مع الحجيج قد اعتمر وطاف

اسرعت مى ترخى على وجهها نقابا كثيفا، وتغادر خباءها: تعتمر وتطوف، غيرة على مضاض أن يتعرض له متعرض. ومضت تتابعه بعينيها : ومضاض لايعلم بمكانها: ولايرى وجهها الذى اخفاه عنه ذلك النقاب الكثيف. الا أن مياهى الأخرى، لم تكن تدرى، أن عينين خبيثتين ترقبانها عن كثب وتتبعان حركاتها أثناء الطواف فى تحفز

وترقب، فما كانت تدرى بأمر قبيس بن سراج الذى يهواها فى صمت ويأس، إذ كان يعلم بعد ما بينه وبينها فى المكانة والمنزلة، وكان يعلم أيضا بأمر حبها لابن عمها مضاض. ولكنه كان دائما يتبعها كظلها، يرقبها من بعيد وهو يحاذر أن يراه أو يلحظه أحد.

وهكذا كان مضاض يطوف وهو لايدرى أمر مّى، وكانت هى ترقبه أثناء طوافها وهى لاتدرى أمر قبيس.. وكان مضاض يغيب عنها بين جماهير الحجيج، فتسرع فى خطواتها حتى تلحق وتظل على كثب منه.. وكان يبطئ فى مشيته وقد أضناه الحر، وترقرقت على جبهته حبات من العرق، فيرق قلبها له، وتود تسرع نحوه تجفف هذه القطرات، وتريح رأسه الذى أجهده القيظ. وتبتسم لنفسها إذ تخطر لها هذه الفكرة وتهمس:

ـ سرعان ما ينقضى رجب، وينتهى كل هذا الطواف، ويسكن قلبى إلى جوار قلبه.

وحين مدت بصرها مرة أخرى. كان مضاض قد اختفى وسط مجموعة متكاثفة من الحجيج الغرباء، فأسرعت فى مشيتها: وقد أحست بيد قاسية تقبض على قلبها واخذ إحساس ملىء بالخوف والقلق يتسلل إلى نفسها.. وأخذت ترتطم بالجمع المتكاثف وهى تشق لنفسها طريقا، وعيناها تخترقان الجمع المتدافع بحثا عن مضاض.

كانت رقية بنت البهلول الجرهمى تطوف فى ذلك اليوم القائظ، وقد اشتد عطشها. ولكنها ما كانت تستطيع أن تقف لأهل السقاية وسدنة

البيت من جرهم، تطلب منهم إرواء ظمئها، فما كان يليق بها وهى فتاة مرموقة من أعلى بيت فى مكة، أن تكتشف وجهها أمام سقاء، فتحاملت على نفسها وظلت تطوف وإحساسها بالظمأ يشتد وحاجتها للماء تتزايد.. وحين لمحت رقية مضاضا يطوف من بعيد أحست أنها أنقذت من ورطتها فهو حدث من بيتها، رعته منذ كان صبيا يلعب مع أخوتها الصغار. وابتسمت لنفسها، وهى تراه يطاول بقامته الرجال ويطوف طوافهم.. وأسرعت رقية ناحية مضاض، وما أن اقتربت منه حتى لمست كتفه. فالتفت إليها، وقالت له:

- اسقنى جرعة من ماء يا مضاض، فإنى خشيت أن أموت ظمأ.

فأشار مضاض إلى أحد السقائين، وحمل منه إناء الماء، ومد يده به إلى رقية مبتسما، فتناولته رقية منه فى لهفة وأزاحت بيدها نقابها ومضت تشرب.

وأخيرا رأته مى. كان يقف هناك أجل: أنه هو وفى يده طاسة ماء، وعلى وجهه ابتسامة.. وأسرعت مى تدفع من حولها بمنكبيها وهى تدقق النظر وقد اشتد خفق قلبها، وأسرع تردد أنفاسها.. وكانت أمامه امرأة مكشوفة النقاب.. تأخذ منه الماء وهى تبتسم وكأن بينهما ودا متصلا، وتفاهما مقيما...

انها رقية بنت البهلول الجرهمى، وأحست بعقارب الغيرة تنوش قلبها، وبقيظ النهار كله يتجمع فيبهر أنفاسها واختلطت فى أذنيها أصوات الحجيج، ثم أحست بنفسها تتهاوى إلى الأرض. ومن بعيد

جاءتها أصوات ضعيفة كأنها تتصاعد من جوف بئر، قال صوت امرأة: مالها؟.. وقال صوت رجل عجوز: لقد عرضت.. أصابها دوار، وقال صوت فتى: إنها الشمس.. وأخذت مى تتمالك نفسها، وتحاملت ووقفت، وكل شيء يدور حولها ويطن، وعيناها تختلط أمامهما كل الوجوه: وهى تسير مبتعدة عن الحجيج، ثم مسرعة فى الطريق، وأقدامها تندفع وكأنها تسوقها قوة خفية نحو سفح جبل مكة، حيث منزلها، وأخذت مى كلما اقتربت من المنزل تستعيد سيطرتها على حواسها: وإدراكها لما حولها، فأبطأت فى سيرها، فما كان لمثلها أن يراها الناس وهى تجرى فى شوارع مكة، فتغدو حديثا تلوكه ألسنة الفضوليين والفارغات من النسوة

وحين وصلت مى إلى منزلها، كانت قد استعادت هدوءها تماما وإن ارتسم الغضب والحنق واضحا على وجهها، فما كاد أبوها يراها حتى أسرع نحوها قائلا:

- ما الحجيج يا بنيه افترق

فقالت له. والكلمات تتدافع عند شفتيها:

- لم يفترق الحجيج يا أبة، ولكن الموت لايكتم، وإليك شكواى واستعانتى لإنك عمادى ورجائى

قال مهليل بن عامر فى جزع:

- فمالك يا بنيه؟

ووضعت مي يدها فوق رأسها، وقد بدا الألم واضحا فوق وجهها وهى تقول:

ـ انصدع قلبى صدعا، لن يلتئم بعدها صدعه

فشحب وجه مهليل وقد بدأ يحس ما تعانيه ابنته من ألم، ومد يده إليها يربت على كتفها فى رفق. وهى تقول:

ـ يا أبة، مضاض ابن عمى دعا قلبى فأجابه، فلما أجابه قذف خلف النوى.

واحتبست الكلمات بين شفتيها، أخذ جسدها كله يرتجف، فأجلسها أبوها وهو يقل فى وجل:

ـ كفى يامى كفى.

ولكنها أشرقت بدمعها، وهى تقول فى غضب يشوبه حزن طاغ:

ـ رأيته ياأبة، يلاحظ رقية بنت البهلول وسقاها ماء، ففارق روحى جسمى أسرع من طرفة عين، ثم تداركت أمرى، ورأيت أنه بدّل حسبها بحسب، وخطرا بخطر.

وكان صوتها قد اشتد وتعالى وازدادت رنة الغضب فيه وهى تهب من جلستها وهى تقول:

ـ ولم يبلغ والله خطر البهول، مهليل بن عامر، ولارقية بنت البهلول ميا بنت مهليل بن عامر

وانتقل غضبها الجارف إلى أبيها، فأكفهر وجهه وعبست أساريره وخرجت كلماته غاضبة حانقة:

ـ صدقت يابنية، لاورب الكعبة لن يكون ذلك

التفتت مى فى عزم وتصميم وهى تقول:

ـ ياأبة، لن والله أقيم بموضع يكون مضاض ابن عمرو أبدا، وإنى راحلة إلى أخوالى جسر بن قين.

فأطرق مهليل بن عامر، وقد غلبه حزن امتزج مع ماملأ قلبه من غضب وهمس فى صوت خافت:

ـ لك ذلك يابنية. ومنذ الغداة نرتحل.

تهاوت مى وهى تهمس وكأنما لنفسها:

مضاض غدرت الحب والحب صادق

وللحب سلطان يعز اقتداره

غدرت ولم أغدر وللعهد موثق

وليس فتى من لايقر قراره

إذا جاءنى ليل تململت بالذى

دعا كبدى حتى تمكن ضاره

أبيت أقاسى النجم والليل دامس

وللنجم قطب لايدور مداره

إذا غاب لم أشهد وكان محله

محلى ودارى حيثما كان داره

إذا هاج ماعندى لأول غيرة

علاه اشتعال مايطاق استعاره

* * *

دخلت سلمى على مى وهو تقول:

ـ بالباب رجل يريد أن يراك

فصاحجت مى غاضبة:

ـ أنا لاأريد أن أرى أحدا.

فقالت سلمى:

ـ ولكنه يقول أنه يعرف مادار بين مضاض ورقية

وهبت مى مجفلة وهى تكاد تصرخ:

ـ إذن أدخليه.

وتسلل قبيس بن سراج داخلا وكأنه يزحف زحف الأفاعى، وعيناه تدوران فى وجه مى وكأنما تلتهمها بنظراته، وصاحت به مى:

ـ أرأيتهما؟

فابتسم قبيس لنفسه ابتسامة خبيثة وهو يقول بصوت كالفحيح:

ـ يامى رأيت عجبا

وعادت مى تصرخ فى غضب وانفعال:

ـ ماهو؟

وأحس قبيس أنه ليس بحاجة لأن يمهد لما جاء يبثه من كذب، فعاد يبتسم لنفسه راضيا، وخرجت كلماته تقطر كالسم.

- رأيت مضاضا واضعا كفيه على قرون رقية بنت البهلول فى الطواف، هو يدافع عنها أهل الطواف سانحا وبارحا، ثم استسقته ماء، فناولها بيده فشربت وناولته. فظل مضاض ينظر فى عينيها وهو ينشد: فصاحت مى، وقد اشتد حنقها وأحسست بلسع الغيرة يجتاح قلبها.

- أقال لها شعرا؟ ماالذى قاله ياقبيس؟

وعاد قبيس يبتسم لنفسه وهو يغبطها على ماأصابها من توفيق، وحين استعدت لمثل هذا السؤال بشعر وضعه بنفسه، ثم قال:

قال لها:

رقيقة قلبى قد تباين صدعه

وللحب منى شاهدو دليل

رأيت الهوى يهدى وللوصل واصل

فهل لك أن يلقى الخليل خليل

فلما انتهى مضاض من انشاده أجابته رقية قائلة:

وقاطعته مى مرة أخرى صارخة وهى تحس بالدنيا تدور بها.

وأجابته بشعر؟ ماذا قالت له ياقبيس

ـ قالت له

أصـــون الهـــوى والطرف منى كـــاتم

ولايعـــملون الناس إذ ذاك مـــادائى

ســـوى أننـى قـــد فـــزت منك بنظرة

تجـــرعت عـــذب الحب منه مع الماء

وكـأنما أصيبت مـى بلوثة فـمضت تصرخ وهـى تقذف بكل شيء أمامها، حتى خاف قبيس على نفسه، فهرول مختفيا، وحاولت سلمى أن تهدئ من ثائرة ابنة عمها دون جدوى. وانطلقت مى تقبل بين خيام الحى مرة، وتدبر أخرى هى لاتعلم ماهى فيه: ولم تهدأ إلا حين التقت بأبيها فهرعت إليه صائحة وهى ترتمى إلى صدره:

ـ غدا نرتحل ياأبة

فقال أبوها، وهو يربت على كتفها، يهزه البكاء:

ـ لقد أمرتهم أن يستعدا ويجمعوا حوائجهم، مع الفجر نفك خيامنا ونرتحل

كـان مضـاض يستريح من طواف يومـه وقد أنهكه الحر وأضـربه القيظ، حين دخل عليه رجل من حى المهليل بن عامر، كانت تربطهما صلة قديمة، ومـاأن استراح به المجلس، حتى راح يحكى لمضاض كل مـاحدث وكيف غضبت مى من رؤيته مع رقية يسقيها ماء، ثم كيف جاء قبيس بن سراج، فأشعل غضبها نارا تلتهب، وختم حديثه قائلا:

ـ هكذا سترتحل فى الغد إلى أرض أمج ذات الضال حيث منازل جسر بن قين اخذا لها..

وهب مضاض من جلسته وقد انتابه غضب شديد واندفع يحمل سيفه، ويقفز فوق جواده، وهو يقسم لايعود إلا برأس قبيس بن سراج.

* * *

كانت أشعة الفجر الوليد تصارع لاختراق حجب الظلام، بينما كانت القبيلة كلها تشد الرحال وتطوى الخيام متأهبة للرحلة الطويلة، حين أشرف عليهم فارس وحيد، يتقدم فى بطء نحوهم وقد أجهد السعى جواده، فتثاقلت خطواته وعلى جسده امتزج العرق بالغبار.

كان مضاض قد قضى ليله كله يبحث عن قبيس دون جدوى، فقد أحس قبيس بالخطر يتعقبه فاختفى وكأنما ابتلعته الأرض، فلما يئس مضاض من بحثه قصد إلى منازل مى فأشرف عليهم وهم يتأهبون للرحلة، واتجه مضاض إلى مى فى هودجها، ووقف بفرسه إلى جوارها صامتا مطرقا، وهو لايعرف كيف يبدؤها بالحديث، بينما أشاحت مى بوجهها عنه وتشاغلت بالنظر إلى يديها وكأنها لاتراه..... ورفع مضاض رأسه وهمس:

ـ يامى، أعيذك بالله أن تغدرى من لم يغدرك، وهذا موقفى بين يديك فجودى لمن لم يجترم جرما

ولم ترد مى، بل ازدادت تجهما، وأحس مضاض أنه يقف ضائعا وسط تيه من الأصوات، ومن كل مكان حوله كانت القبيلة تستعد للرحلة بينما توقف نسيم الفجر أو كاد، وعاد مضاض يهمس من جديد

ـ يعشى عن الناس لحظ طرفى

وعندك يامى غير عاشى

أتهجرينى بغير ذنب

وتقتلينى بقول واشن

وصاح إلى جواره صائح، وبدأت النجب تهب واقفة بأحمالها، واغرورقت عيناه بالدموع. وقد بدأ الحى فى الرحلة

زحفت من أمامه غضبى، وهو واقف فى مكانه لايتحرك يرقبهم وهم يسيرون.. بعيدا بعيدا.. وهو فى مكانه لايريم.

عاد مضاض إلى بيته متخاذل الساقين، ممزق الفؤاد، ورمى بسيفه وربط جواده ,وبدل ملابسه، ثم ركب ناقته، وانطلق فى أثر الركب المرتحل، ..ولحق به ابنا عمه وكانا يحبانه حبا جما، يريدان أن يقصياه عن أمر هذه الرحلة، ولكنه لم يسمع لهما ومضى يغذ السير، وقد شرد بصره واكتسى وجهه بحزن مقيم، وتبعه الاثنان خوفا عليه ورعاية له.. وعلى ربوة تشرف على منازل أمج، أناخ ناقته، وجلس يرقب الحى من بعيد لا يتكلم، ولا يتحرك وإلى جواره ابنا عمه، يحاولان التسرية عنه دون طائل

وطالت الأيام بمضاض وهو ذاهل إلا عن منازل مى يرقبها فى صمت حتى هزل جسده، وتهدلت ثيابه، وتغير شكله، وجاءه عامر ابن عمه ذات صباح يقول:

ـ لقد علمت أن أهل امج يريدون الرحيل إلى نجد وأن مهليل بن عامر يريد العودة إلى مكة.

فأشرق وجه مضاض لأول مرة، وقام خفيفا إلى راحلته، يمتطيها ويقترب بها من منازل جسر بن قين يرقب آثار النشاط تدب فى المكان والقوم يتأهبون للرحلة، وكان ابنا عمه فى حيرة من أمره، فهو يقترب من الحى حتى يبدو كأنه سينضم إليهم، ثم يبتعد عنهم وكأنه يريد الفرار منهم، وحين بدأ الركب رحلته وانفصل مهليل بقوة إلى طريق مكة، أسرع مضاض يقترب منهم، وكأنما تسوقه يد قوية لا يملك لها دفعا ومازال يتقدم بين الركب حتى وصل إلى هودج مى وظل يسير إلى جوارها شاحبا مرتجفا وقد أطرقت هى حين رأته وتولت بوجهها عنه، وقال مضاض بصوت مرتجف.

ـ علام قبست النار يا أم غالب

بنار قبيس حين هاجتك ناره

على كبد حرى وأنت عليمة

بغيب رفيق لا يبين ضماره

سألتك بالرحمن لا تجمعى هوى

عليه وهجرانا وحبك جاره

ـ وما أتم مضاض حديثه، حتى صاحت مى غضبا بقائد ناقتها تحثه على الإسراع حتى تبتعد عن مضاض وظل مضاض واقفا مكانه حتى لحق به صاحباه، وقال له عمرو ابن عمه:

ـ ما قالت لك.؟

فهمس مضاض وهو تائه البصر:

ـ لقد فرقت بيني وبينها شربة ماء، والله لا أشرب بعدها ماء أبدا.

ولوى مقود ناقته ومضى مسرعا، وصاحباه وراءه حتى بلغ مكة فأنف أن يدخلها، وعاد مرتدا من جديد إلى الصحراء، وعمرو وعامر يستعطفانه على شرب الماء وهو يأبى، واصلا ليله بنهاره فى جولان لا يستقر ولا يهدأ دون غاية.. حتى غلب عليه العطش واشتد به الضعف فأناخ ناقته وتهاوى جسده المهزول إلى الأرض، وقد غشيه الموت.

وأخذ عمرو رأسه وجعله فى حجره، وقد غلبه الألم واستبد به الحزن وقال من بين دموعه:

ـ قصفك الدهر يا مضاض.

ففتح مضاض عينيه فى صعوبة وهمس من بين شفتيه المتشققتين.

ـ قصفنى قبيس.

ومضى يغالب سكرات الموت، حتى سكنت حركته وهدأت أنفاسه ثم سكنت إلى الأبد.

* * *

وظل عمرو مع ابن عمه مضاض بينما انطلق عامر إلى الملك الحارث يبلغه بالأمر ويحمل له نعى زينة فتيان مكة مضاض بن عمرو الجرهمى.

فى الطريق إلى مكة نزل مهليل بن عامر يستريح بقومه بجوار منازل البهلول الجرهمى، والتقت مى برقية وعجبت رقية لأعراض مى عنها، فاقبلت تترضاها وتعابثها، وسألتها ضاحكة.

ـ ما كان من شأنك ومضاض، لقد انقضى رجب.

فتجهمت مى للسؤال، وقالت فى مرارة:

ـ لقد تركته يا رقية.

فدهشت رقية وأبدت عجبها واستنكارها، فلما أحست مى صدق دهشتها، مضت تحكى لها سر ما حدث، وما أن انتهت من حديثها حتى قالت رقية فى لوم:

ـ ظلمتيه يا مى، بالله ما كان بينى وبينه قط سبب، ولا كلمته إلا استسقائى منه الماء، وذلك أنى كدت أموت عطشا، واحتشمت أن أقف إلى السدنة ولم أر من أعرفه من أهل الطواف، ولما رأيت مضاضا حملتنى إليه دالة القرابة وحداثة سنه، فكلمته فسقانى، ثم ما رأيته بعدها إلى يومى هذا.

فلم تعرف مى ماذا ، وأحسست برأسها يدور فسألتها مى.

ـ فهل كان منك إليه شعر ومنه إليك، شعر.

قالت رقية:

ـ ولا والله ما كان بينى وبينه كلمة غير طلب الماء ومن حمل إليك هذا الحديث مغرض يريد الوقيعة وقد نجح فيما أراد.

واختلطت المشاعر فى نفس مى، وبدأ أمامها وجه مضاض يستعطفها قبل الرحلة، منكس الرأس مطرقا لا يجد فى صدقه ما يرد به الكذب ولا يجد فى وفائه ما يرد به الغدر، سوى النظرة الحزينة لا تغادر وجهه، وازداد بمى القلق، وقد ملأ قلبها شعور غامر، بأنها ظلمت مضاضا وتجنت على حبه، وأسرعت إلى أبيها تطلب منه سرعة الرحيل إلى مكة لعلها تلتقى بمضاض، تعتذر له، ولعلها تجد من حبه شفيعا لها عنده.

وسرعان ما أمر مهليل بن عامر قومه بالرحلة وغزا الركب سيره، ومى تستشعر بطء الرحلة وتكاد تريد لها جناحين تطير بهما إلى مكة.

كانت القافلة تدخل مكة، وأهلها يستشعرون الراحة إذ بلغوا غايتهم، حين لقيهم صوت الصراخ والبكاء، يملأ مكة كلها وأوقف مهليل ناقته إلى جوار قوم بيكون وهو يسأل عن سر المصاب الذى غمر أهل مكة أجمعين. ورفع أحدهم رأسه وهو يقول:

- أن مضاضا بن الملك عمرو الجرهمى قد مات.

وارتفعت صرخة ملتاعة من هودج مى وصاحت سلمى:

- لقد فقدت الرشد.

قصدت سلمى إلى خيمة بنت عمها مى فوجدتها ساهمة مطرقة وكأنما قد أصابها جنة، وكان صراخ أهل الحى حزنا على مضاض يملأ الجو كله. وقالت سلمى.

- يا مي. أراك ذاهلة، وقد مات مضاض ولست أرى في عينك دمعا.

قالت مي:

- قسوة أدركتني منعتني الدمع، وفي الدموع راحة لو أصبت إليها سبيلا.

وأطرقت لحظات ثم رفعت رأسها وقالت لسلمى:

- لقد آليت على نفسي ألا أشرب ماء حتى يشرب مضاض.

وأجفلت سلمى، فمضاض قد مات وجعلت تتأمل وجه مي، وقد أخافتها تلك النظرة الثابتة التي تحجرت فيها عيناها، ولم تستطع أن تتكلم ولكن حينما مضى يوم كامل دون أن تقرب مي الماء بدأت سلمى تخاف وتضطرب، وحين مر اليوم التالي على مي دون شراب، حاولت سلمى أن تغريها بالماء وأن تقنعها بالعدول عن عزمها، ولكن ميا كانت في جسلتها الثابتة ونظرتها الشاخصة، كأنهما لا ترى ولا تسمع.

فلما كان اليوم الثالث، هبت مي من جلستها وسارت مع الليل إلى الربوة التي أقيم فيها قبر مضاض تتبعها سلمى. ولما وصلت إلى القبر، سقطت عليه دون حراك واقتربت منها سلمى وقلبها واجف، رأنفاسها مضطربة، فوضعت يدها على فمها فوجدته كالحجر الصلد، وتحركت الشفتان في بطء وخرجت الكلمات متقطعة ضعيفة.

- قولي لأبي يدفني هنا بالدوحتين بجوار مضاض.

وسكتت الشفاه فى الحركة، سكنت العيون فهى جامدة، واقتربت سلمى المذعورة بأذنها فى الحركة، بأذنها من صدر مى، ولكن قلبها كان قد سكن إلى جوار قلبه من زمن.

فهرست

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٢٦٥١

I.S.B.N 977 - 01 - 6064 - 4

فى عصرنا هذا
ليس من السهل أن نكتب الحقيقة، كل الحقيقة..
ولكننا نستطيع أن نرمز إليها بما هو واقع مر،
وحقيقة فى ذاته، فإذا بها قد تتضح عند بعض
القلوب الواعية فيصل إليها جزء من الحقيقة أما
الحقيقة فتظل مدفونة فى أعماق العمل الأدبى،
لن يكشفها إلا من يكرس نفسه لفهم العمل،
بحثا عن الحقيقة ولكن ماهى الحقيقة؟

٤٥٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب